

كتاب الهلال



# أوراق مصرية

سلسلة  
ثقافية  
شهرية

الدكتور عبد الله خورشيد





# كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

## مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٦٢٥٤٥٠ « سبعة خطوط »

KITAB ALHILAL

العدد ٤١٦ - ذو القعدة ١٤٠٥ - أغسطس ١٩٨٥

NO , 416 August 1985

## الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ( ١٢ عددا ) فى جمهورية مصر العربية سبعة جنيهات و ٢٠٠ مليم بالبريد العادى وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالاة بريدية غير حكومية . وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

# كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

إفلاف برشفة  
الفنافة سمفحة حسفف

اهءاءاف ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمء سعفء البسفوفف

الإسكفءرفة

# أوراق مصرية



بقلم

الدكتور عبد الله خورشيد



دار الهلال



## هذه الأوراق

من يرصد الحياة المصرية فى مرحلتها الحاضرة لاتستطيع عينه ان تخطىء ذلك الاحساس القوى ، والشعور الحى بمصر سواء فى المرحلة القديمة من تاريخها التى ابدعت فيها الاصول الكبرى للحضارة ، أو المرحلة القبطية التى قاومت فيها الوثنية مقاومة باسلة وصلت الى حد الاستشهاد الجماعى أو المرحلة العربية الاسلامية التى احتضنت فيها الاسلام ولغته العربية فى حماس وتسامح ، ووعى وابداع تجسم آخر الامر فى صورة رائعة للحضارة الاسلامية ، أو فى المرحلة الحديثة التى تتسم بالعمل الدعوب المستنير لدخول العصر مع الاحتفاظ بالشخصية الخاصة .

وما نشهده الآن مع الاهتمام بالتراث المصرى فى عصوره المتتالية ، وصوره المتنوعة علما وفكرا ، وفنا وأدبا ، ودينا وعقيدة ، وحكما وسياسة ، وحربا وسلاما ، الخ .. الخ هو الدليل الحى على هذا الاحساس القوى ، وذلك الشعور الحى . وهو اهتمام تشارك فيه الدراسة الجامعية ، والبحث العلمى ، والعمل السياسى ، والمقالة الصحفية ، والقصيدة والقصة ، والمسرحية والفيلم ، واللوحة والنحت ، والموسيقى والأغنية ، والبرنامج الاذاعى والتليفزيونى . مثلما أن شيوع عبارات : الإنسان المصرى ، والشارع المصرى ، والشخصية المصرية وما أشبه هو من علامات ذلك الاهتمام .

وهذه الأوراق التي يسعدني أن أقدمها اليوم من خلال كتاب الهلال في تلك المرحلة المزدهرة ، صحفيا وثقافيا ، من حياة مؤسسة دار الهلال . هذه الأوراق هي جزء من حصاد معاشية عقلية علمية وجدانية فنية لتاريخ مصر وحضارتها ، بدأت تأخذ شكلها الأكاديمي منذ العام المقدس من القرن الحالي : عام ١٩٥٠ . وقد انصب التركيز والتعمق في هذه المعاشية على حقبة محدودة جدا من تاريخ مصر ذي الطول والعرض والعمق ، هي هذه الحقبة التي تنحصر زمنيا بين حدثين تاريخيين أولهما هو فتح العرب لمصر سنة ٢٠ هـ ، وثانيهما هو الفتح الفاطمي لها سنة ٣٥٨ هـ . ولست أمل أن أعيد في هذا المقام مالا أكف عن ذكره والتنبيه عليه من أن هذه الحقبة التي لم تمتد أكثر من ثلثمائة وبضعة وثلاثين عاما . ومع ذلك فإنها تشكل ، من وجهة النظر الحيوية ، البوتقة التي أجرى فيها الزمن في معمل التاريخ عملية من أخطر ما عرفت مصر ، ذلك بأنها خرجت من هذه التجربة وقد أضافت في حياتها الدينية القرآن الكريم الى العهد القديم والعهد الجديد ، وشيدت المسجد بجوار الكنيسة ، مثلما انطلقت في حياتها اللسانية تتكلم لغة عربية فصيحة في شئوننا الرسمية ، ولغة عربية مصرية أو مصرية عربية في أمور حياتها اليومية ، وهذا كله لا يعنى سوى أن تلك الحقبة كانت هي فترة المخاض التي تم بعدها ميلاد مصر الجديدة ، مصر العربية الاسلامية .

وهذه الأوراق هي لقطات منتقاة من تلك التجربة يركز فيها الضوء على جزئيات لها دلالتها وأهميتها من عناصر تلك العملية الكبرى . وعلى الرغم من فنية الشكل الذي أخرجت فيه هذه اللقطات فإن المضمون يقوم على أساس من الالتزام الصارم بالدقة المنهجية ، والأمانة العلمية .



## الحصان الفاتح

لا شك في أن الجيش الذي عبر به عمرو بن العاص حدود مصر الشرقية قادما من فلسطين سنة ٦٤٠م = ٢٠هـ كان في حوزته العدد المناسب من الابل التي تحمل الزاد والماء ، والمتاع والسلاح وربما النساء ، والتي تزود جنود ذلك الجيش باللبن واللحم في نفس الوقت . لكن لا شك كذلك في أن هؤلاء الجنود معظمهم ، إن لم يكونوا كلهم ، كانوا فرسانا لكل منهم حصان واحد على الأقل ، الامر الذي يعنى أن مصر قد دخلها حينذاك ما لا يقل عن ثلاثة آلاف حصان عربى . وفى خلال عام ، ومع توالى الامداد لجيش عمرو توالى ارتفع بعدد أفراد هذا الجيش الى حوالى خمسة عشر الفا ، يمكن أن يكون عدد الخيل العربية قد زاد بهذا القدر أو قريبا منه . ولنا أن نتصور احتشاد هذه الآلاف المؤلفة من الخيل فوق أرض مصر فى تلك الفترة القصيرة بما هى عدة حربية ، وطاقة قتالية ، وما يمكن أن يكون لها من أثر عميق وفعال فى سير الحوادث .

إن الجيش الذى دخل عمرو به مصر ، واستولى به على الموقع تلو الموقع : الفرما ، بلبيس ، أم دنين ، هليوبوليس ، الفيوم ، البهنسا ، بابليون ، نقيوس ، الكريون ، الاسكندرية ، مدن الساحل الشمالى ، مدن الدلتا ، الصعيد ..... إن هذا الجيش كان فى مصر معظمه جيشا من الفرسان وهذا يعنى أن مصر لم يفتحها الفارس العربى وحده وإنما شاركه فى ذلك مشاركة حقيقية حصانه العربى المدرب القوى ، ذو الخبرة السابقة بالمعارك وأهوالها ، وكرها وفرها ، والذى اعتادت أذنه قعقة السلاح ، والفت خياشيمه رائحة النقع والدماء .

بعد أن أكتمل فتح مصر من بحر الروم ( البحر الابيض المتوسط ) شمالا حتى أسوان جنوبا كان لابد لموجة الفتح التي ماتزال في عنقوانها أن تواصل التقدم جنوبا متوغلة في القارة الافريقية . فكان على الحصان الذي لعب دوره في فتح مصر أن يعبر بفارسه العربى حدود مصر الجنوبية الى بلاد النوبة ، بلاد الأساود المحاربين الاشداء فى معركة دمقله العاصمة ( ٢١هـ ) التي انتهت ، على الرغم من ضراوتها ، بتعادل الجانبين وعقد هدنة بينهما . كثيرون هم الابطال الذين سجلت الرواية أسماءهم فى ذلك القتال ، ولكنها لم تنس أن تسجل فى نفس الوقت بطولة الحصان فى جملة شعرية واحدة معبرة لاشك فى أنها أحد خطوط لوحة كبيرة صاغها أحد الفرسان للشعراء الذين خاضوا تلك المعركة :  
لم ترعيني مثل يوم دمقله      والخيل تعدو بالدروع مثقله

x x x x

فى نفس الوقت ، وخلال السنين التالية حتى اخريات القرن الأول الهجرى ، اندفعت موجة الفتح العارمه غربا بمحاذاة الساحل الشمالى لبحر الروم تستولى على حصونه ومدنه الواحدة بعد الأخرى حتى تبلغ الساحل الغربى للقارة المطل على بحر الظلمات ( المحيط الاطلسى ) ، ثم تنتهى لتعبر بحر الزقاق ( مضيق جبل طارق ) لتتب على شبه جزيرة ايبيريا وتستولى على الجزء الاكبر منه الذى أصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم : الاندلس .

وهنا ايضا كان الحصان هو الذى حمل الفارس العربى من مصر الى شاطئء المحيط الاطلسى ثم الى الاندلس ابتداء من لوبية ( ليبيا ) ، ومرورا بأفريقيه ( تونس ) ، وانتهاء بالمغرب فى معارك طويلة مضنية تعاقب فيها النصر والهزيمة تعاقب المد والجزر تحت راية نفر من الابطال تلا بعضهم بعضا فى قيادة الجيوش العربية : عمرو بن العاص ، عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، معاوية بن حديج ، عقبه بن نافع ، حسان بن النعمان ، موسى بن نصير ،

طارق بن زياد .

أن مانحسه اليوم ونحن نقرا أخبار تلك الفتوح من مشاركة الحصان فيها مشاركة حقيقيه تجعل منه محاربا فعليا قام بدوره فى شجاعه وصبر ، أحساس قد سبقنا اليه قادة تلك الفتوح ، وعبروا عنه تعبيرا عمليا يعكس تقديرهم الحقيقى لهذا الحصان وأهميته . لذلك جعلوا - تطبيقا لما شرّعه الرسول عليه السلام منذ البدء - سهم الحصان من الغنائم ضعف سهم فارسه . فكان سهم الحصان فى إحدى معارك أفريقية الفين من الدنانير ، فى حين كان سهم صاحبه الفا فقط مثله مثل الراجل .

بل لقد تحول ذلك الحصان فى إحدى الحكايات الى بطل أسطورى كان له الفضل فى أنقاذ جيش بأكمله ، هو جيش عقبة بن نافع ، من الهلاك عطشا تحت نار الشمس المحرقة فى قلب الصحراء القاتلة . فعندما قفل عقبة بجيشه متجها الى مقر قيادته بعد أن خاض عددا من المعارك أفتتح فيها مجموعة من القصور ( المدن المحصنة ) فى ليبيا نزل فى بعض الطريق - ربما - ليستريح ولكن حدث أن نفذ كل الماء الذى تحمله الابل المرافقة للجيش فى القرب على ظهورها . وكان موقفا بالغ الخطورة ، فالإقامة فى المنزل تعنى انتظار الموت عطشا ، ومواصلة السير تعنى السعى الى الشئ نفسه . ولم يكن أمام عقبة ما يستطيع عمله سوى أن يتجه الى الله بكل أيمانه وخوفه ورجائه فى صلاة طويلة عميقة . وبينما عقبة منخرط فى صلاته ودعائه تحرك جواده الذى كان يقف خارج الخيمة يكابد من الظمأ ما تكابده سائر الخيل وكل الرجال ، فسار خطوات قليلة توقف بعدها عند بقعة من الرمال ، وانحنى بعنقه نحوها وراح يبحث فى الرمال بيديه ليصنع حفرة صغيرة لم تلبث حتى تكشف عن صخرة ملساء لم تكد الرمال تنزاح عن جوانبها حتى انفجر الماء صاعدا من تحتها . وراح الحصان الظمآن يمتص الماء ، وينقع غلته ، ويسترد روح الحياة .

انتهى عقبة الذى شاهد ما حدث من صلاته وهو لا يكاد يصدق ما



يرى ، وأنفثل خارج خيمته يصيح بفرسانه أن يقبلوا ويحفروا المنطقة هنا وهناك . وفى لحظات كان الرجال الاشداء الضامئون قد احتفروا سبعين حفرة شربوا منها ماشاءوا ، وملئوا قربهم ليواصلوا بعد ذلك مسيرهم . لم ينقذ جواد عقبة جيشا كاملا من الهلاك فحسب ، ولكنه ايضا اكتشف أثمن ما يمكن أن يكتشف فى الصحراء : الماء . وتخليدا لذلك الحادث العجيب والاكتشاف الكبير أطلق على ذلك المكان منذ حينئذ اسم : ماء فرس .

ترى هل هذا الحصان المنقذ هو نفس الحصان الذى كان عقبة يعتلى صهوته على ساحل بحر الروم عند مدينة السوس من افريقية ( تونس ) قبل أستشهاده بقليل ( ٦٢ ) هـ ، متطلعا الى الافق الشمالى البعيد غير عالم بما يقع وراءه من أرض وبلاد ، ظانا - ربما - أنه قد بلغ نهاية العالم من ناحية الغرب ، فأقحم فرسه فى ماء البحر حتى بلغ نحره ثم قال : « اللهم أنى أشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازا لجزت » لوحة رائعة لم تجد بعد ريشة الفنان .

x x x x

هذا الحصان الفاتح ظل حوالى ثلاثة أرباع القرن منذ خرج من الفسطاط عاصمة مصر الجديدة متوجها شمالا الى الاسكندرية ، العاصمة القديمة ، لينطلق منها غربا - البحر عن يمينه والصحراء عن يساره - يحاصر المدن المحصنة حتى تسقط فيأسر سكانها ، ويغنم أموالها ، وثم يكر راجعا الى الفسطاط وقد أنهكه المسير ، وأضنته المعارك ، وأهزله الجوع ، وأصبح فى أمس الحاجة الى فترة كافيه من الراحة والهدوء والتغذية الجيدة . وهذا ما حققه له القائد الفاتح عمرو بن العاص من خلال رحلة الربيع - أى الخروج الى ريف مصر فى فصل الربيع - للارتباع والاستجمام . وكانت تعليمات عمرو الى الفرسان فى العناية بخيلهم صريحة بقدر ماهى صارمة أذ يقول :

” ..... وأربعوا خيلكم وأسمنوها ، وصونوها وأكرموها فأنها

جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم وأنفالكم .... ولا أعلم ما أتى  
رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا انى معترض الخيل  
كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من  
فريضته ( مرتبه ) قدر ذلك ....

x x x x

لم يكن هذا الارتباع السنوى المظهر الوحيد للاهتمام الذى كان  
الحصان يتمتع به حينذاك فعند تخطيط مدينة الفسطاط وتقسيمها  
الى خطط ( أحياء ) موزعة على القبائل لم ينس المهندسون الذين  
أشرفوا على التخطيط وتخصيص الفضاء الممتد بين حصن  
بابلون ونهر النيل لتعريق الخيل وتأديبها . وحمل هذا الفضاء  
الاسم الطبيعى له وهو : المضمار .

وحدث أن كان معاوية بن حديج ، أحد قادة الفتح ومن كبار  
رعاة القبائل يمر قريبا من ذلك المضمار فلفت نظره رجل على  
كثير ممسكا برسن فرسه ، فأرسل غلامه لينظر من الرجل فاذا هو  
بأبى ذر الصحابى الكبير الشهير وكان قد أقام بمصر بعض الوقت  
عند فتحها . أدار أبى ذر فرسه وسار نحو أبى ذر الذى كان  
منهما فى العناية بفرسه . ألقى أبى ذر نظرة فاحصة خبيرة  
على حصان أبى ذر فلم يجد فيه من المزايا ما يوجب كل هذا  
الاهتمام به من أبى ذر ، فسأله مستفسرا : يا أبا ذر : أنى أرى هذا  
الفرس قد عناك ، وما أرى عنده شيئا . قال أبو ذر : هذا فرس قد  
استجيب له . وأدهش أبى ذر أن يسمع الصحابى الوقور يقرر  
ليس فقط أمكان صدور الدعاء من فرس بل أيضا أمكان استجابة  
السماء لدعوة ذلك الفرس ، فسأله مستنكرا : ومادعوة بهيمة من  
البهائم ؟ أجاب أبو ذر العليم بوثاقة العلاقة بين الفرس وفارسه ،  
وارتباط كل منهما بصاحبه ارتباطا حياتيا : أنه ليس من فرس إلا  
أنه يدعو الله كل سحرية : اللهم أنت خولتني عبدا من عبيدك  
وجعلت رزقى بيده . اللهم أجعلنى أحب اليه من ولده وأهله وماله

ومن الطريف أن نذكر هنا أن معاوية بن خديج هذا ، وهو  
 الفارس البارع والمقاتل المضحك كان له أسلوبه الخاص والشاق في  
 تدريب ابنائه على ركوب الخيل ، إذ كان يصبر - والأرجح أنه كان  
 في ذلك مقتديا بالرسول عليه السلام - على ألا يكون لسرج خيلهم  
 ركاب ، ويفرض عليهم أن يثبوا إلى ظهر الحصان وثبا دون  
 الاعتماد على ركاب ، فيضطرون بذلك إلى المحافظة على لياقتهم  
 البدنية كفرسان من حيث قلة الوزن ، وقوة العضلات وخفة الحركة  
 مع امتلاك القدرة على البقاء على صهوة الحصان بدون ركاب في  
 المعارك التي لا يندر أن ينخلع في أثنائها الركاب من السرج .  
 لم تكن الفسطاط ، وخاصة في بداية أمرها بالمدينة الكبيرة  
 الواسعة ، ولكن شيوخ القبائل وكبار القادة والزعماء كانوا يتنقلون  
 بين أحيائها على صهوات جيادهم يسعى عبيدهم بين أيديهم .  
 وكذلك إذا ذهبوا إلى المسجد الجامع في وسط المدينة لصلاة  
 الجمعة ركبوا خيلهم . فلم يكن بد من ترك ما حول ذلك المسجد  
 فضاء لتوقف فيه الخيل وتربط إلى أن يفرغ أصحابها من شهود  
 الصلاة أما دار الخيل التي بنيت في وقت لاحق عند سفح جبل  
 يشكر ( يقوم على بعضه جامع ابن طولون حاليا ) ، حيث كانت  
 الخيل تباع وتشترى ، فقد أقيمت في وقت متأخر نسبيا .  
 وليس بيطار بلال بالفسطاط سوى دليل على وجود محلات بيطرة  
 لعلاج الخيل التي كانت الفسطاط تكتظ بها حينذاك .

x x x x

مثما ينبغي في كل فئة من الناس أو مهنة من المهن أفراد  
 يتمتعون بالكفاءة العالية ، والتفوق الفذ ، فيتحولون في سماء  
 الشهرة إلى نجوم لامعة تتطلع إليها الأعين ، وتحدث عنها الألسن  
 حدث ذلك بين الخيل التي دخلت مصر مع الفتح وبعده ، فسرعان  
 ما ظهر لعدد منها مزايا التفوق وآيات النبوغ ما جعل منها نجوما  
 ساطعة في دنيا الخيل في مصر حينذاك ، تعرف أسماؤها وتحفظ



أنسابها ، وتروى أخبارها .

تميز الأشقر ، أشقر صدف ، بالسرعة الفائقة التي شكلت عاملاً هاماً في اكتشاف واحه الفيوم وفتحها ، ثم حماية المسلمين من غارات الروم الليلية قبيل الاستيلاء على حصن بابلين ، ثم في أنقاذ الفرسان المحاصرين فوق كوم شريك .

على الرغم من أن عجلي ، إحدى خيل قبيلة عك ، كانت حبلى ، وكان المفروض أن يقعدها ذلك عن المشاركة في معارك الفتح ، أو على الأقل يثقل حركتها ويقلل من كفاءتها ، فإنها شاركت في تلك المعارك ، بل كانت أخف من غيرها حركة وأكثر سرعة ، مما جعل الشاعر ، ولعله صاحبها ، يسجل لها ذلك ويتغنى به في قوله :

سبق الاقوام عجلي سبقتهم وهي حبلى

وذاع ذلك الشعر بين الناس ، وذاعت معه شهرة عجلي ، الى أن التقى أحدهم يوماً بالفارس صاحب عجلي فقال له مداعبا ، وربما مستهزئاً : ما فعلت عجلي ؟ يشير بذلك الى الشعر المذكور . وجاءت اجابة الفارس موجعة اذ قال : أما أن لها في أمك سهمين ! ذاك بأن أم ذلك الزجل ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن خديج ، وهي قبطية ، كانت من نصيب أبيه عندما سُبيت في إحدى المعارك التي شاركت فيها عجلي عند افتتاح المدن المصرية بالدلتا . أما الخطار ، أحد خيل قبيلة تجيب ، فقد بلغ من حسنه وأصالته ما أطمع فيه أمير مصر عبد العزيز بن مروان . ولما لم يستطع الحصول عليه الا بعد أن أصبح مشوها نتيجة قطع أذنيه بحيث لم يعد صالحاً للظهور به ، فقد احتفظ به عبد العزيز للانجاب فقط . وأنجب الخطار الذائد ، ثم أنجب الذائد الفرقد الذي أصبح أباً لسلاله اشتهرت بالسبق وعرفت بأسم : الخيل الفرقدية .

وليس يخفى تأنيق الفرسان في اختيار أسماء لخيولهم ذات دلالة . فالخطار الذي يتبختر في مشيته مزهوا بنفسه . وذو الريش السريع كأنه طائر . وأبلق لخم لشدة بياضه . والجون لشدة

سواده ... الخ .

وطبيعى بعد ذلك كله أن يصبح سباق الخيل هو الرياضة الشعبية الأولى لدى جماهير العاصمة ، وأن يُخصص فى الفسطاط مكان معروف لممارستها يُعرف باسم ميدان الرهان ، ويُخصص لهذا السباق يوم بعينه هو يوم الرهان يحرص أمير مصر نفسه ، ومعه - ربما - كبار رجال الدولة ، على شهوده .

x x x x

إذا كانت مصر قد عرفت الحصان منذ وقت بعيد فى تاريخها الفرعونى ، قد يرجع الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، حيث ظل الحصان حيوانا حربيًا أرسنقراطيا تقتصر ملكيته وأستعماله على الملك والامراء والقادة وعِلية القوم ، فأن دخول الحصان العربى مصر مع الجيوش والقبائل العربية فى القرن السابع الميلادى يُعَدُّ بِحَقِّ بداية لصفحة جديدة فى تاريخ الحصان بمصر على نحو ما عرضناه هنا من دوره فى عمليات الفتح ، فقد انتشر هذا الحصان فى مدن مصر وقراها بانتشار العرب انفسهم فى تلك المدن والقرى ، وانتقل استعماله مع الوقت الى المصريين ، وأصبح هو وسيلة الانتقال السريعة فى طول البلاد وعرضها مثلما ظل العنصر الاساسى فى المعارك والحروب .

ولقد ظل هذا الحصان يلعب فى الحياه المدنية المصرية طوال اثنى عشر قرنا الدور الذى ورثه القطار ومن بعده السيارة فى العصر الحديث . مثلما ظل يلعب فى الحياة العسكرية الدور الذى ورثته الدبابة فى العصر نفسه .

## رفيق السلاح

أصاخ أهل الفسطاط السمع الى الناعى وهو يسعى متباطئاً ويردد : أيها الناس : قد نفق الاشقر ، وأخوكم أبو ناعمه يجهز لدفنه عند خوخه داره فى خطتهم .

كثيرون ممن سمعوا النداء كانوا يغيرون أتجاههم ، أو يقومون من مجالسهم ، أو يخرجون من دورهم قاصدين الى خطه ( حى ) الصدف ليجدوا أبا ناعمة مالك بن ناعمة الصدفى الفارس الذائع الصيت جالسا القرفصاء الى جدار داره ، فيلقون اليه التحية ويأخذون مكانهم فى صمت الى جانبه أو قبالة . وعند الخوخه التى تفضى من دار ابى ناعمة الى الدار المجاورة أنحنى رجلان يضربان الارض بفأسهما فى قوة ليصنعا حفرة طويلة عميقة .  
يا لله . هكذا ينتهى كل شىء .

منذ أربع سنوات فقط كنت أعبر حدود مصر الشرقية لأول مرة مع فرسان الجيش العربى الزاحف من فلسطين الى مصر تحت أمره عمرو بن العاص . كان فرسى الذى أعتلى صهوته يتألق فى ضوء الشمس كقطعة من الذهب ، يدق الأرض بحوافره القوية ، ويتقوس عنقه المتين الى أعلى فى كبرياء ، وتتطلع عيناه اليقظتان الى الامام فى تصميم . لعله كان الاشقر الوحيد فى كل كتائب الفرسان ، لكن لانزاع فى أنه كان أرشق واجمل الافراس جميعا . بل لقد كان أسرعها جميعا ، بذلك شهد الكل وأعترف ، فما أكثر ماتسابت جياذ الفرسان فسبقها كلها ، لم يتخلف عن ذلك مرة واحدة ، حتى أصبح "أشقر صدف" رمزاً للسرعة يضرب به المثل .

x x x x



لم تكن قواتنا القليلة العدد نسبيا ، بعد المعارك المظفرة لكن القاسية التي اشتبكت فيها مع قوات الروم من العريش حتى أم دنين ، قادرة على أن تفعل شيئا ذا بال بالنسبة الى حصن بابلليون العتيد الذي تحتشد قوات هائلة من الروم خلف أسواره المنيعة السامقة التي ترتفع في الجو كأنما تتحدى الزمان نفسه .

كان علينا أن ننتظر المدد الذي كتب أميرنا عمرو يطلبه من الخليفة . ولم يكن لدينا ما نفعل سوى أن نركض بخيلنا حول الحصن هنا وهناك نلمح أحد جنود الروم فوق قمة الحصن أو وراء فتحة من فتحاته ، فنفوق اليه سهامنا . وكان الربيع يوشك على الانتهاء مغليا مكانه للصيف القادم . وخشى عمرو علينا السأم ، فليس أسوأ للجندى من الفراغ الذي يضعف من همته ، ويطفىء من حماسه .

لم يكن بد من أن يبحث القائد عن معركة تجدد نشاط جنوده ، وتطرد البلادة عن نفوسهم وجسومهم معا ، ولكن أين يمكن أن تكون هذه المعركة ؟

أختار عمرو بضعه نفر من الفرسان المعروفين بالشجاعة والدهاء والحذر وأرسلهم يتجولون شمالا وشرقا ، وغربا وجنوبا ليتعرفوا على طبيعة البلاد ، ومواقع العدو . وكنت أنا واحدا من هؤلاء الفرسان القليلين .

كلفني عمرو أن أسير جنوبا بغرب ، ولم يكن أسهل على ، ولا أحب الى من مثل هذه المهمة . فقوسي على عاتقي ، وسيفي الى جانبي ، وتحتي فرسي الاشقر بأذنيه المرهفتين اللتين تتصيدان النبأ ، وعينيه الحادتين اللتين تكشفان حتى الاشباح ، وسيقانه الصلبة الدقيقة التي تسبق الريح نفسها .

أخذت الجانب الغربى للنيل متجها نحو الجنوب ، وسرت لا أرى عن يميني سوى الحقول الخضراء التي ماتزال تنبسط حتى تلتقى بالافق الغربى البعيد ، تتخللها أجام النخيل الكثيفة ، وتتناثر فيها

القرى الغارقة فى الضوء والسكون .. وعن يسارى يجرى النيل جسدا هائلا من الماء العذب الذى تتكسر موجاته فى هدوء متجهة نحو الشمال . وكلما اقتربت من قرية تقوم على الطريق لكزت الأشقر فينطلق كومضة برق ويعبر القرية قبل أن تسترد النسوة شهقاتهن ، والرجال صيحاتهم . وبعد حوالى خمسين ميلا انقطعت الأرض الخضراء ، واختفت القرى ، ولم يعد عن يمينى سوى رمال صفراء صامته ولكنها تحمل آثار أقدام الناس والدواب ، فُجئت اليها ومضيت أسير غربا مستقبلا رائحه الصحراء التى طال بعدى عنها .

كنت سعيدا بلقاء الصحراء ، كما بدا الاشقر سعيدا مثلى ، غير أنى لم أكن أكف عن التساؤل بعقلى وعينى ولسانى - ولعل الاشقر كان كذلك يفعل - عما يمكن أن تضمه هذه الصحراء . لم يطل بنا المسير كثيرا حتى وجدنا الجواب يقوم أمام أعيننا فور خروجنا من أحد الشعاب . واحة كبيرة ضخمة ، ترتفع فيها المئات من أشجار النخيل تتراءى البيوت الالهة من بين جذوعها ، تحيط بها كروم العنب وحدائق الفاكهة ، وتنسبط خارجها الحقول الخصبة . هذه أذن "بيوم" الواحة الجميلة التى طالما سمعنا من أسرانا بوجودها هناك .

تمنيت لو أطلت الوقوف أملا عيني بمعالم الواحة ومفاتها ، غير أنى أنتبهت الى الاشقر اليقضان وهو يرفع قائميه فى الهواء ، ويستدير بعنقه نحوى لينبهنى الى عدد من جنود الروم يركضون نحونا على خيلهم . أدت عنان الاشقر ولكزته لكزة أنطلق معها يسبق الريح ، ويثير الرمال . كنت أسمع حوافر جياد الروم تضرب الأرض من ورائنا ، وسهامهم تحاول أصابتنا ، ولكن كل لحظة تمضى كانت تباعد ما بيننا وبينهم . لم يكن الاشقر يجرى وإنما كان يطير . ويُس الروم من ادراكنا فتوقفوا وانقلبوا راجعين ، ومضى الاشقر ينهب الأرض نحو الشمال ، لم يتوقف سوى مرتين

أو ثلاث حتى بلغنا معسكرنا عند حصن بابليون ، وأفضيت الى عمرو بما لقيت . وبعد أيام قليلة كانت معركة الفيوم

على الرغم من أن معركة الفيوم ، وما تبعها من معركة البهنسا ، كانت ذات أهمية بالغة بما فتحت باب الصعيد أمام قواتنا ، فقد كان مايزال أمامنا المعركة الكبرى ، معركة حصن بابليون الذى لامفر لنا من الاستيلاء عليه قبل أن نستطيع أن نتحرك خطوة واحدة نحو الشمال لفتح مدينة الاسكندرية العظيمة عاصمة مصر ، وأجمل وأهم مدنها فى ذلك الزمان ، لكن المدد لم يصل بعد ، ولا نستطيع خوض معركة جانبية أخرى ، فعدنا من جديد الى معسكرنا جنوبى الحصن ننتظر وصول المدد ، ونشتبك فى مناجزات فردية مع من تسول له نفسه من جنود العدو الخروج من الحصن والاقتراب من معسكرنا .

كنا فى قلب الشتاء الثانى لنا فى مصر ، وحدث أن غبت عن المعسكر أياما فى مهمة خاصة وجهنى فيها أميرنا عمرو ، ولما عدت سمعت زملائى الفرسان يذكرون أمرا عجبا . قالوا أنهم كلما وقفوا لصلاة الصبح فوجئوا بجندى رومانى يتسلل من خلفهم ، حتى إذا سجدوا أنقض عليهم فى خفه الفهد ، وراح يعمل فيهم سيفه فى سرعة ومهارة ، فيقتل من يقتل ويجرح من يجرح ، حتى اذا أنتبهوا اليه ، أنفلت هو الى برزون له أشهب يقف فى مكان قريب فوثب اليه وفر عائدا الى الحصن . وكم أسرع بعضهم الى جيادهم فركبوها ، وركضوا خلفه يطاردونه ، ولكنه فى كل مرة كان يسبقهم جميعا ويختفى داخل أسوار الحصن المنيعة قبل أن يدركوه .

غلا الدم فى عروقى ، وتطايير الشرر من عيني ، وتصلبت يدي على مقبض سيفي عندما سمعت هذا الكلام . كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ كيف يجروء هذا العليج الرومانى على التسلل الى معسكرنا فضلا عن الاعتداء على رجالنا وفرساننا ؟ لم أعلق على ما سمعت



بحرف واحد . أدت ظهري لرفاقي وأنصرفت . أحسبت أن على وحدي تقع مسئولية وضع حد لهذه الغارة الخبيثة . غير أني ، في الحق ، لن أكون وحدي ، إذ لابد أن يكون صديقي العزيز ، الأشقر ، معي كما هو معي منذ أن خرجنا من شبه الجزيرة مع جيوش الفتح منذ عامين . لم يفارقني ، ولم أفارقه . أصبحنا صديقين حقيقيين ، أسمع منه ويسمع مني ، وأفهم عنه ويفهم عني ، وأخاف عليه ويخاف علي ، وأتودد إليه ويتودد إلي ، بيني وبينه كل ما بين الصديقين من حب وود ، وموثق وعهد ، ومشاركه وفهم ، وعطاء وبذل .

وكان السحر التالي ، وجعل الفرسان يستيقظون تباعا ، فيتوضئون وينشطون ، حتى إذا أنطلق صوت أحدهم يشق السكون ، ويهز الوجود داعيا إلى الصلاة وقفوا جميعا خلف أميرهم في صفوف منتظمة متلاحمة .

لم أكن حينذاك بين رفاقي الواقفين للصلاة ، ولعل أحدا منهم لم ينتبه إلى غيابي ، وإنما كنت كامنا مع حصاني الأشقر خلف تل ترابي صغير قريب من مكان الصلاة أرهف السمع ، وأحد البصر ، وأشمم الهواء .

لم تمض لحظات حتى تنأى إلى سمعي وقع أقدام ثقل مكثوم . التفت إلى الأشقر فوجدته يتجه برأسه وأذنيه وعينه نحو مصدر الصوت القادم في اتجاهنا من ناحية الحصن . لم تمض لحظات أخرى حتى تبينت في جوف الظلام شبح الفارس الروماني ، على ظهر برذونه ، يأخذ طريقه نحو جماعة المصلين في حذر وتصميم . صبرت عليه حتى ترجل ومد يده إلى حسامه ليمتشقه . وفي مثل لمح البصر طرت إليه بحصاني ولكنه أحس باقترابي فوثب إلى برذونه وأنطلق يعدو إلى الحصن ، غير أني لم ألبث حتى أدركته ، ثم سبقته بخطوات ووقفت أمامه أسد الطريق عليه .

ترجل عن برذونه فترجلت عن فرسي ودارت بيننا مبارزة شرسة بالسيف لم تلبث حتى انتهت عندما أغمدت سيفي في صدره ، ثم

انتزعته لافصل به رأسه عن جسده وأنا أملأ الجو بالتكبير  
والتهليل . وهناك فقط أنتبهت الى الأشقر وهو يصهل صهيلا  
حادا . التفت اليه لارى أغرب ما يمكن أن تقع عليه عين . البرذون  
الاشهب ملقى على الارض يسبح في ألم ورعب ، ويضرب الهواء  
بأقدامه ، فى حين يتدفق الدم بغزاره من عنقه الذى قضمه الاشقر  
قضمة كبيرة عميقة بفكيه القويتين ، ولم يكتف بذلك بل راح يهوى  
على رأسه وبطنه بركلات قاسية من حوافره الصخرية .  
كان البرذون يلفظ أنفاسه الاخيرة فى حين كان صاحبه يرقد  
مجندلا وقد فارق الحياة تماما . أخذت بعنان الأشقر ، وربت جسده  
الذى ينضح غرقا اهنته وأشكره ، واستدرت لواجه نفرا من رفاقى  
الفرسان الذين خفوا الى المكان على هتافى وصهيل الاشقر . قال  
أحدهم : حياك الله ابا ناعمة وحيا . صاحبك الاشقر . لقد تأرتما لنا  
وشفيتما صدورنا .

x x x x .

مر بعد ذلك الحادث الغريب ثلاثة شهور ، وكنا فى أواسط ثانى  
فصل من فصول الربيع نشهده فى مصر ، وكانت الامداد قد  
وصلت الينا أخيرا فزادت اعدادنا ، وقويت قلوبنا واشتد تصميمنا  
على الاستيلاء على حصن بابليون الذى ظللنا نعسكر جنوبيه ،  
وندور حوله طيلة حوالى أربعة اشهر ، وتحقق لنا ذلك آخر الامر ،  
ووقع الحصن العتيد فى قبضتنا وجلا عنه الروم المنهزمون أخذين  
طريقهم بمقتضى معاهدة صلح ، شمالا نحو الاسكندرية العاصمة  
التي كانت ماتزال فى قبضة قوات رومانية أخرى كبيرة ، كان  
مايزال علينا الاستيلاء عليها وعلى مدن الساحل الشمالى وعلى  
مصر السفلى ( الدلتا ) جميعها .

تركنا حامية مناسبة تحتل الحصن وتحكمه ، فى حين تحرك  
جيشنا الكبير يزدهيه النصر ويمتلئ صدره بالثقة الى قلب الدلتا  
حيث لم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام المدينة المصرية العريقة ،

ذات التاريخ الطويل الذي يرجع الى أقدم عصور مصر : نقيوس .  
هناك دارت معركة من أشد معارك الفتح عنفا وهولا أنتهت على أى  
حال ، بسقوط المدينة مثنخة بالجراح فى أيدينا ، وخروج فلول  
الروم منها هاربة الى الاسكندرية . وكان علينا أن نطاردهم فى  
نفس طريق هربهم نحو الشمال . وأختار قائدنا عمرو كتيبة من  
الفرسان الشجعان ، جعل على رأسهم الفارس العظيم شريك بن  
سمى الغطيفى أحد مشاهير رجال الفتح ، أمرها أن تسبق طليعه  
له ، فى أثر قوات الروم الهاربة على الطريق الى الاسكندرية .  
وكنا ، فرسى الاشقر وأنا ، من أفراد هذه الكتيبة .

سار بنا قائدنا شريك غربا لنصل بعد وقت قصير الى مدينة  
ترنوط التى عبرنا عندها الفرع الغربى للنيل ثم أدركنا خيلنا شمالا  
ليفاجأ بعد عدة أميال بقوات الروم متجمعة وقد لمت شتاتها ،  
ونظمت صفوفها ووقفت تسد علينا الطريق الى الشمال مستعدة  
لملاقاتنا فى معركة جديدة .

كان من المستحيل أن نتراجع لنلأ يكون خزى الدهر ، وعار  
الابد . وكان دخول المعركة يعنى ابادة مؤكدة لكتيبتنا الصغيرة عن  
آخرها .

فكر قائدنا شريك فاحسن التفكير ، ودبر فأحكم التدبير . أمر  
بعض فرساننا فاشتبكوا فى منازلات فردية مع بعض فرسان  
الروم ، وفى أثناء ذلك أسرعت الكتيبة فانبازت الى تل ترابى عال  
كبير على جانب الطريق ، ملتجئة الى قمته العالية بعيدة عن متناول  
سيوف الروم وعن مرمى سهامهم .

كان موقعنا على قمة التل منيعا حقا ، ولكننا لم نكن لنستطيع  
البقاء هناك أكثر من بضعة ايام ينضب بعدها ماؤنا ، وينفذ زادنا ،  
بل - وهو الاخطر - تفرغ سهامنا . وه . ذلك نصبح فريسة سهلة  
المنال لجنود الروم المعسكرين عند أسفل التل يتربصون بنا ذلك  
كله . لم يكن مفر من اختراق ذلك الحصار بطريقة أو بأخرى ،

وأبلاغ الامر الى عمرو الذى لم يتحرك بعد من نقيوس . لم يكن  
أمامنا سوى أن ينزل أحدنا بفرسه فيخترق معسكر الروم ويأخذ  
طريقه الى نقيوس . كان ذلك عملا انتحاريا لأن ذلك لن يقترب من  
الروم حتى تكون سيوفهم قد جندلته هو وحصانه فى غمضة عين .  
نجاح العملية كان يتوقف أذن على القدرة على اختراق الحصار فى  
سرعة خاطفة . وكنت اعلم ، كما يعلم الجميع ، أن الحصان الذى  
يستطيع أن يفعل هذا لا يمكن أن يكون سوى فرسى : الاشقر .  
لم أكد أعتلى الاشقر ، وأدير وجهه ناحية معسكر الروم اسفل  
التل ، وأمتشق حسامى ، حتى أيقنت أن الاشقر قد فهم تماما  
المهمة الدقيقة الخطيرة التى نتأهب لانجازها ، فانتصبت أذناه ،  
وأتسعت عيناه ، وأنطبق فكاه ، وصهل صهيل الجندى الشجاع  
المقدم على المعركة .

مهما ضربنا المثل فى السرعة بالريح أو بالبرق أو لمح البصر  
فعندى أن الاشقر كان أسرع من أولئك جميعا . لم أدرك من  
معسكر الروم سوى أشباح ترتد الى الوراء مذعورة ، ولم أسمع  
صيحات تنطلق مبهورة ، وكدت لا أصدق أننى أفلحت فى اختراق  
الحصار ، دون أن تمس شعرة منى ولا من الاشقر ، منطلقا جنوبا  
لا عبر النيل تجاه ترنوط شرقا ، ماضيا منها الى نقيوس حيث  
انتهيت الى عمرو المأزق الذى يقف فيه شريك ورجاله .

ما أن عرف عمرو الخبر حتى أصدر أمره الى الجيش الكبير  
بالتحرك . وما أن سمع الروم بتحركه حتى إمتلأت قلوبهم رعبا  
ففكوا الحصار عن التل ، وأستأنفوا الفرار الى العاصمة . وعند  
أسفل التل وجدنا شريكا يقف لاستقبالنا مع فرسانه ، ومنذ ذلك  
اليوم أصبح التل يعرف باسم : كوم شريك .

x x x x

. رفع أبو ناعمة رأسه ، وفتح عينيه كأنما يفيق من حلم طويل وقد  
أصبح وجهه صورته مجسمة للحزن البليغ ، أجال بصره فى رفاقه



ثم التفت ناحية الخوخة . كان الرجال قد فرغوا من شق حفرة طويلة عميقة امامها ، وأسندوا فتوسهم وأرفاشهم جانبا ، ووقفوا يمسحون العرق عن جباههم ووجوههم بأذيال أثوابهم فى انتظار تعليمات أبى ناعم الذى طلب منهم فى صوت يخنقه البكاء أن يحضروا الاشقر .

وجد الرجال مشقة كبيرة فى جر الحصان الميت الى الحفرة التى أنزلوه فيها وراحوا يهيلون فوقه التراب وقد وقف الجميع فى صمت تام ، وأحترام حقيقى يتصدرهم أبو ناعمة وهو يودع رفيق سلاحه الوداع الاخير محزون القلب ، دامع العين ، ولكنه فى نفس الوقت راضى النفس اذ رفض أن يلقى جثمان صديقه على الاكوام خارج الفسطاط حيث تطرح عادة الجيف والدواب ، وأبى الا أن يدفن كما يدفن المحاربون الابطال ، وأن يكون مرقده الاخير اقرب ما يكون الى داره ليظل بعد موته ، مثلما كان طوال حياته ، ملازما له يستجيب لقلبه كلما خفق ، ولصوته كلما تحدث ، ويتابع خطوه كلما سار .

x x x x

حفظت لنا الروايات الدور الحاسم الذى لعبته قبيلة الصدف فى معارك الفتح حتى أن عمرا كان يذكرها وهو يرتجز فى قلب المعارك ، كما حفظت اسماء وأعمال محاربى هذه القبيلة وساستها وعلمائها فى حياة مصر من بعد الفتح . ولم تنس هذه الروايات أن تسجل بطولات الاشقر الذى لم يكن أشهر خيل الصدف فقط بل كان من أشهر خيل مصر جميعا ، والذى كان لايجارى سرعة . وإذا كان كوم شريك قد حمل اسم الفارس العربى شريك بن بسمى ومايزال يحمله حتى اليوم ، فأن الخوخة التى دفن الاشقر عندها بالفسطاط قد حملت اسمه منذ تلك اللحظة كذلك ، وظلت تعرف باسم : خوخة الاشقر الى أن فقدت الفسطاط مكانتها كعاصمة فهجرها سكانها ، وتحولت مع الزمن الى أنقاض وأكوام .

## رحلة الربيع

مصر : سبتمبر ٦٤٢ م

واخيرا توقفت المعارك . وصفا الجو من الغبار الذى طالما  
أثارته سنايك الخيل الى اعالي السماء . أما الخيل نفسها فقد  
رجعت الى مواقفها تعلق العلف وتضرب اعجازها بأذيالها . وأن  
للرجال ذوى العمائم ، والوجوه السمر ، واللحي المدببة أن يهدءوا  
قليلا ، وعادت السيوف الى غمدها ، والسهام الى جعابها ، ولم تعد  
الانوف تزكمها رائحة الدم والاشلاء المتعفنة ، وعندما أقلت من  
الاسكندرية آخر سفينة تحمل الروم المهزومين الى بيزنطة تنفيذا  
لمعاهدة الصلح مع العرب الفاتحين كانت شمس عصر بأكمله  
تنحدر غارقة وراء الافق من بحر الروم ، فى حين كانت تتصاعد من  
الشرق شمس عصر جديد بعقيدته ونبيه ، وكتابه الدينى ، ولغته .  
ويجيل المصريون بصرهم فيما حولهم لا يكادون يصدقون شيئا  
مما حدث . أحقا رحل الروم الغلاظ المتعجرفون ؟ كيف بالله تهاوت  
حصونهم الواحد تلو الآخر فى الفرما وبليبس والدلتا والصعيد ؟  
من كان يصدق أن يسقط بابليون العظيم ؟ والاسكندرية المنيعه  
ذات الاسوار ؟ ومدن الساحل التى طالما تحدثت البحر والاعاصير ؟  
والبهنسا حاميه الصعيد ؟ والفيوم الواحة الفيحاء ؟ ستمائة  
وسبعون عاما متصلة من الحكم والسيادة تنتهى كحلم من  
الضباب ، ويرجع الروم من حيث أتوا وكان يظن أنهم باقون الى  
الابد .

ترى أين سيقم الفاتحون الجدد ؟ يقال أنهم يعتزمون الاقامه  
فى الاسكندرية . أميرهم تعجبه قصورها الضخمة وحدائقها  
الفناء ، وطرقاتها الواسعة ، لكن ملكهم الذى يسمونه " الخليفة "  
غير موافق ، و لا يريد أن يقيم جنوده فى مكان يفصلهم عنه فيه

بحر ، لماذا لا يحولون معسكرهم الذى ضربوا أول الفتح جنوبى بابليون ، بين النيل وتلال المقطم ، الى مدينة تكون عاصمة سياسية وقاعدة عسكرية فى وقت واحد ؟ أنهم من هذا الموقع الوسط يستطيعون التحكم فى الدلتا شمالا ، والصعيد جنوبا ، والصحراء شرقا وغربا . ثم أليس هذا هو نفس الموقع الذى قامت حواليه من قبل : هوليوبوليس ، ومنف ، وبابليون ؟ وكذا كان . قوض العرب خيامهم وبيوت الشعر ليفسحوا الارض أمام المصريين البنائين المهرة ليقيموا مكانها بيوتا من اللبن من طابق واحد ولكنها واسعة ، وتولى ظهرها للطريق وتنفتح من الداخل على صحن الدار . أن هؤلاء العرب لا يحبون أن تطلع العيون على داخل بيوتهم . ولا ينسى البنائون أن يقيموا فى مركز المدينة مبنى مستطيلا فسيحا يعرف باسم : المسجد الجامع لتقام فيه الصلوات اليومية وصلاة الجمعة . ويتخذ العرب لمدينتهم الجديدة نفس الاسم الذى طالما سمعوا الروم والمصريين يطلقونه على معسكرهم فيسمونها : الفسطاط تعريبا لكلمة : فساطن .

الفسطاط : برمهات ( آذار ) ٦٤٤ م  
الشمس أنتقلت الى برج الحمل ، وهبت ريح الشمال ، وتفرقت السحب ، قد جاء فصل الربيع ففتحت الحيات أعينها ، وبدأت هوام الارض تسعى ، وكثر الذباب الازرق ، وحان دراك الفول والعدس وأورقت الأشجار ، وأصبح اللبن الرائب أطيب ما يكون . عمرو بن العاص ، فاتح مصر وقائد جيشها ، ينظر الى رجاله وهم قافلون من الغزو وقد برزت وجناتهم ، وغارت عيونهم ، ويبست جلودهم ، فى حين هزلت خيلهم فتقلصت أشفارها ، وبدت عظامها ، وضممرت بطونها . لا بد لهؤلاء الرجال وخيلهم من فترة من الدعة والاستجمام يريحون فيها أجسادهم المرهقة ، ويستردون قواهم المنهكة ، ويستعدون لاستئناف الغزو على امتداد سواحل أفريقية الشمالية . ما أكثر الكور ( الاقاليم ) فى مصر ، أسفلها

وأوسطها وأعلاها ، وما أكثر القرى المتناثرة في هذه الكور ، وما أوسع وأخصب الحقول المنبسطة حول هذه القرى ، وما أطف أجو الآن وأنسبه للخروج الى ريف مصر الرحب الممرع . فلينطلق فرسان كل قبيله الى كوره من هذه الكور ، فيضربوا مضاربهم خارج احدى قراها ، وليقيموا هناك حتى أخريات الربيع ينعمون بالطبيعة الحلوة وينالون من طعام الريف الشهى ، ويطلقون خيلهم ترعى فتشبع ، ثم يعودون وقد أصبحوا جميعا أرضى ما يكونون نفسا ، وأقوى ما يكونون عزما على أستئناف الجهاد فى سبيل الله .

وفى مسجد القسطاط الجامع يخطب عمرو رجاله فيقول :  
”قد حضر مرافق ريفكم فانصرفوا . فاذا حمض اللبن ، واشتد العود ، وكثر الذباب فحى على فسطاطكم . ولا أعلم ما جاء أحدكم قد أسمن نفسه وأهزل جواده“

x x x x

احدى قرى مصر : برمودة ( نيسان ) ٦٤٤ م  
الشمس الرقيقة التى قد حلت برج الثور تأخذ طريقها فى رفق نحو كبد السماء الصافية العميقة ، والهواء لطيف منعش ، والقرية الكبيرة ذات البيوت المتلاصقة ، والدروب الضيقة المتعرجة تقوم فوق تل ترابى كبير ، تحيط بها مساحات واسعة من حقول الفول الأخضر والقمح الذهبى والخضراوات . طريق زراعى ممهد يمر تحت القرية متجها نحو الغرب حيث تنتهى الحقول وتبدأ الصحراء . على جانبى الطريق أعمدة ظليله من أشجار السنط وأشجار الجميز الذى ظهر البطن الاول منه . من بين بيوت القرية ترتفع أشجار النخيل الرشيقه يظهر من بينها برج كنيسة يعلوه الصليب . الرجال فى الحقول يزرعون ويحصدون . الورد فى أوج أكتماله وأبهى جماله . والعصافير لاتنقطع شيقشقتها وهى تتطاير هابطة صاعدة ما بين الارض والاشجار والجدران . جو عام من الهدوء الرزين والصفاء الحزين .



سحابة كبيرة من الغبار الكثيف تعلو فى الجو فجأة من ناحية الشرق عند أول الطريق الزراعى المؤدى الى القرية . السحابة تقترب شيئاً فشيئاً فى اتجاه الغرب . يسمع وقع سنايك الخيل القادمة وهى تدق الارض فى ركضها وتثير الغبار من خلفها . السحابة تتوقف على الطريق أمام القرية الكبيرة ، وينقشع الغبار ليكشف عن مجموعة من الفرسان العرب قوامها حوالى مائه رجل يتنكبون القسى ، وتتدلى السيوف من جوانبهم ، وتلتمع عيونهم السوداء النفاذه من خلال وجوههم السمرء الصارمة . العصافير تهرب الى أغصان الاشجار ، والرجال الذين يعملون فى الحقول يتوقفون عن العمل ويتطلعون بأعينهم ناحية القرية ، فى حين يسرع الافراد الموجودون عند مدخل القرية الى دار المازوت ( رئيس القرية ) يطيرون اليه النبأ .

لا تمر لحظات حتى يكون المازوت على الطريق بين يدي قائد الفرسان الذى ما يزال هو ورجاله على خيلهم ، فى حين يقف ، مترجلاً عند برذونه ، رجل تدل ملامحه وهيئته على أنه قبلى ( مصرى ) يخاطب مازوت القرية بلغته فيطلب منه أن يختار موقعا مناسباً خارج القرية ينزل فيه الفرسان ، ويضربون خيامهم . ويحدد له مسئولياته وواجباته طوال أقامتهم التى قد تبلغ الشهرين .

عبر طريق جانبى ضيق متعرج تأخذ الخيل طريقها بين الحقول الى بقعة واسعة نسبياً من الارض الخالية شمالى القرية . يترجل الفرسان عن جيادهم ، وينزلون أمتعتهم ويشرعون فى إقامة خيامهم ، فى حين تتجه الخيل نحو حقل البرسيم فتميل بأعناقها نحو النبات الريان وتمضى تقتلعه وتمضغه وهى تضرب أعجازها بأذيالها ذات اليمين وذات الشمال . وتدب فى القرية حركة غير عاديه ، ينتظم بينها وبين الخيام صف من الرجال غادين رائحين ينقلون الى القادمين الجدد أوعية الماء ، وحزم الحطب والخشب ، وأكياس الدقيق ، وقُعبان اللبن ، وأوانى السمن ، وأقراص عسل

النحل ، مثلما ساقوا اليهم عددا من رؤوس الغنم . وعندما مالت الشمس نحو الافق الغربى كان كل شىء قد اتخذ مكانه فى المعسكر الصغير الذى بدا ، على الرغم من أنه لم تمض على اقامته سوى ساعات قليلة ، وكأنه يقوم هناك منذ وقت طويل .



كم هم بسطاء وجادون ومنظمون هؤلاء الفرسان القادمون عبر الصحراء الى ارض النيل . اما ثيابهم فقميص وسراويل على الجسد ، وعمامة على الرأس ونعل فى القدم . واما طعامهم فاللحم المسلوق ، وخبز الملة ، واللبن والتمر ، واما فراشهم فالصوف الخشن أو الليف القاسى إن لم يكن الارض العارية . يستيقظون اذا كان السحر فيفسلون وجوههم وأطرافهم بالماء البارد ، ثم ينطلق صوت أحدهم يشق أجواز الفضاء الغارق فى السكون يكبر الله ، ويشهد بوحدانيتة ورسالة نبيه محمد ، ويدعو الى الصلاة والفلاح . ثم ينتظمون صفوفًا متراسة متلاحمة خلف قائدهم ، متجهين جنوبًا بشرق ، ويقرأ قائدهم ، ثم يركع فيركعون ، ويسجد فيسجدون ، ويقوم فيقومون . انهم يصلون . وهكذا يفعلون مرة أخرى عندما تتوسط الشمس السماء ، وثالثة عندما تصبح ظلال الاشياء فى مثل طولها ، ورابعة عقب أن تغرب الشمس ، وخامسة بعد أن يحتلك الظلام . وفى النهار يصلحون قسيهم ، ويبيرون سهامهم ، ويشحذون سيوفهم ، ويرعون جيادهم . وما أكثر ما يثب أحدهم الى ضهوة جواده فى خفة العصفور ثم ينطلق فى سرعة الريح فوق الطريق الكبير غربا حتى يبلغ الصحراء فيظل يعدو هنا وهناك سعيدا بالرمال الصفراء التى تعيد اليه ذكرى الصحراء الام . وما أكثر ما يتجمعون بين خيامهم يتحدثون ويتذاكرون ، ثم يمضى أحدهم يتلو ما يحفظ من القرآن والجميع ينصت فى صمت وخشوع . حتى اذا كان الليل أو قدوا نارا فى ساحة المعسكر وأخلدوا للنوم فى انتظار ساعة السحر .

الايام تمر هادئة طيبة ، الفلاحون يخرجون الى حقولهم فى مواعيدهم المألوفة فيزرعون الخيار شبير والملوخيا والبادنجان ، ويقلعون الفجل ، ويكسرون الفول ، ويحصدون القمح وينفضون بذر الكتان ويقطعون أخشاب شجر السنط ، فى حين يأخذ الجنود العرب حظهم من الاستجمام ، ويؤدون صلواتهم ، ويقرأون قرآنهم ، ويروضون جيادهم التى أخذت تمتلىء وتسترد قواها . وقد يقف أحدهم فوق صهوة جواده يتأمل الفلاحين وهم يزرعون النبات الجديد أو يحصدون النبات الناضج وكأنهم يرون ذلك لأول مرة . أما القرية فيخيم عليها الهدوء وتمضى الحياة فيها على مألوفها ، وتدق أجراس كنيستها فى الصباح وعند الغروب ، ويتناقل الاهلون ما يلحظون من أعمال جيرانهم الجدد ونظام حياتهم .

القرية الكبيرة نفسها : . بشنس ( أخريات أيار ) ٦٤٤ م الشمس حلت أول برج الجوزاء . الرياح الشمالية هى السائدة . الفاكهة كثيرة وقد بدأ البطيخ والمشمش والخوخ فى الظهور ، الحصاد على أشده ويعقبه الدراس وهدار الكتان ونفض البذور والتقاوى والأتبان وحملها . الفلاحون يجنون الورق الأبيض ، وفى نفس الوقت يزرعون السمسم والبلسان .

ينبغى للفرسان العرب أن يشدوا الرحال عائدين الى الفسطاط اذ لم يبق الا قليل وتحل الشمس أول برج السرطان ، ويتنفس النيل وتهب ريح السموم ، ويبدأ فصل الصيف .

وذات سحر يتناهى الى المستيقظين من أهل القرية أصوات حركة غير عادية صادرة من ناحية المعسكر أعقبها بعد فترة أصوات سنابك خيل كثيرة تدق الأرض وهى تركض متجهة نحو الشرق ولما أضاء الصباح وتطلع الاهالى ناحية المعسكر لم يجدوا أثراً للخيام . انتهت رحلة الربيع وأنصرف الضيوف .

الفسطاط : أخريات أمشير ( شباط ) ٦٦٠ م

الربيع على الابواب . قبائل الفسطاط تعد العدة للخروج الى مرتبعاتها في رحلتها السنوية التي لم تتوقف منذ بدأت . أصبح لكل قبيلة كورة ثابتة تخرج اليها ، وتقيم خارج قراها فترة تمتد من أوائل برمهات الى أواسط بشنس . هذيل مثلاً تذهب الى ينا وبوصير في وسط الدلتا ، وآل عمرو بن العاص الى منف ووسيم بالقرب من العاصمة الفسطاط ، والصدف الى الفيوم غرباً ، وحمير الى بوصير وقرى اهناس في مصر الوسطى الخ الخ . لقد أصبحت رحلة الربيع هذه ، أو الارتباع ، جزءاً ثابتاً في حياة كل قبيلة من قبائل مصر مثلما أصبحت موسماً سنوياً ثابتاً من مواسم ريف مصر .

كان عمرو قد عزل عن أمره مصر سنة ٢٤ هـ ( ٦٤٥ م ) . وجرت بعد ذلك أمور وأمور أنتهت بأن عاد عمرو الى مصر وفتحها للمرة الثانية سنة ٣٨ هـ ( ٦٥٨ م ) وحكمها من جديد . اليوم يوم الجمعة وقد تكدس الناس في مسجد الفسطاط الجامع ينتظرون أداء صلاة الجمعة هاهو ذا عمرو فاتح مصر وأميرها ، وسيد برها وبحرها ، وصاحب صلاتها وحربها وخراجها يدخل المسجد والشرط بين يديه يفسحون له طريقاً بين الجموع ليأخذ مكانه واقفاً في مقدمة المسجد قُصْدُ القامة وافر الهامة ، أدعج ابلج ، عليه ثياب موشية كأن به العقيان تأتلق . عليه حلة وعمامة وخبة .

ويخطب عمرو الناس فيحضهم على الزكاة وصلة الارحام ، ويأمر بالاقتصاد ، وينهى عن الفضول وكثرة العيال والقليل والقال . ينصحهم بأن يوفروا لأنفسهم وقتاً من الفراغ يريحون فيه أبدانهم ويتقفون عقولهم . ثم يشير الى دنو فصل الربيع فيهب بهم أن يخرجوا الى الريف لينالوا من خيرهِ ولبنهِ وخرافهِ وصيده ؛ ويأمرهم بالعناية بخيلهم وتسمينها ، ويحذرهم الوقوع في شرك



النسوة المومسات المعسولات ، ويذكرهم بوصاة النبي ( صلعم )  
بالقبط خيرا فيأمرهم بالعفة والرافة معهم .

القرية المصرية الكبيرة : ٢٥٠ هـ ( ٨٦٤ م ) .

القرية الكبيرة تبدو وكأنها لم تتغير . البيوت الجديدة لا تكاد  
تختلف عن البيوت القديمة التي حلت محلها في نفس مكانها ، نفس  
الطراز المصرى الريفى ، ونفس اللون الترابى ، ونفس أكداس  
الحطب التي تعلو البيوت ، ونفس الطرقات المتربة التي تتعرج بين  
البيوت ، حتى برج الكنيسة ما يزال قائما في مكانه يعلوه الصليب ،  
ولكن يقابله في الطرف الآخر من القرية مئذنة بيضاء يعلوها هلال .  
أما أهل القرية فلم تتغير ملامحهم ولا ملابسهم ، الا أنهم يتكلمون  
العربية ، ويذهب معظمهم الى المسجد للصلاة . عدد قليل منهم هو  
الذى ما يزال يذهب الى الكنيسة . والارض الخالية خارج القرية لم  
تعد خالية ، قامت فيها مجموعة من الدور من نفس الطراز تبدو في  
مجموعها قرية صغيرة أشبه بضاحية القرية الكبيرة وتعرف باسم  
"النجع" . أن سكان هذا النجع هم سلالة أولئك الفرسان الذين  
ضربوا خيامهم هناك لأول مرة في فصل الربيع منذ أكثر من قرنين  
من الزمان . ظل أولئك الفرسان يترددون كل ربيع ما بين الفسطاط .  
والقرية الكبيرة ، وفي كل مرة يقتربون نحو أهل القرية خطوة  
ويقترب أهل القرية نحوهم خطوات . وذات ربيع حضر الفرسان  
الى القرية ولكنهم لم يعودوا الى الفسطاط . ظلوا مقيمين طوال  
الصيف ، وطوال الخريف ، وكل الشتاء . وعاد الربيع ليجدهم في  
مكانهم لم يبرحوه . وشيئا فشيئا أختفت الخيام لتقوم مكانها بيوت  
اللبن . ولم يعد الحصان الحيوان الوحيد في هذه البيوت أذ سرعان  
ما أنضمت اليه الابل والغنم والابقار . ولم يعد السيف العمل  
الوحيد لهؤلاء الفرسان فقد ملكوا الارض ، وأستأجروا أهل القرية  
لزراعتها . ومع الجوار المستمر ، والعلاقات اليومية المتبادلة تعرف  
كل طرف بالطرف الآخر ، وتأثر به وأثر فيه . عرف العرب النباتات  
المصرية ومواسم زراعتها ، وكيفية بذرها وتنميتها وحصادها ،

وعرفوا فصول السنة المصرية ، وخصائص كل فصل ، وعرفوا طبيعة النيل ، وموعد فيضانه وتجريفه . لم يصبح هؤلاء العرب فلاحين يعملون فى الارض بأيديهم ، ولكنهم أصبحوا ملاكا يرتبطون بالارض ، ويعتمدون على أنتاجها فى معاشهم . وعرف المصريون عقيدة العرب ووجدوها تعترف بعقيدتهم وتتفق معها فى جوهرها الصحيح . وعرفوا شريعتهم ورأواها سمحة عادلة . وعرفوا قيمهم ووجدوها إنسانية راقية ، لا تتنافى مع قيمهم . وكان يحدث ، وهو طبيعى ، بين الحين والحين أن يختار أحد الرجال العرب من سكان النجع فتاة قبطية من سكان القرية زوجة له تنضم الى زوجاته العربيات وتأخذ عنه دينه ولغته ، وتنجب منه بنين وبنات العرب اباؤهم والمصريون أخوالهم ، ويشكلون مع الزمن جسورا قوية دفينه تربط ما بين هؤلاء الالباء والاخوال برباط حميم من الدم والدين واللغة . وينشأ من خلال ذلك أجيال جديدة من العرب المصريين أو المصريين العرب كان لهم دورهم الهام فى صنع وتشكيل مصر الجديدة ، مصر العربية لغة وأنتماء ، الاسلامية ديناً وحضارة .

أن دخول العرب مصر سنة ٢٠ هـ ( ٦٤٠ م ) لم يكن سوى الايزان ببدا عملية حيوية هائلة فى رحم التاريخ تفاعلت فيها ، على مدى ثلاثة قرون ، عناصر الشخصية العربية الوافدة وعناصر الشخصية المصرية المقيمة تفاعلا بطيئاً هادئاً ، لكنه عميق وجذرى ، اقتصاديا وطبقيا ، ولغويا وفكريا وفنيا ، وروحيا ، وفى كلمة حضاريا انتهى بميلاد مصر الجديدة العربية الاسلامية ، التى أصبحت منذ ذلك الحين وحتى اللحظة أخصب وأرقى مهد للحضارة الاسلامية .

أن التناول العميق الجاد لعملية التفاعل تلك ، وفى جوانبها المختلفة ، وأجب مايزال ينتظر جهود المتخصصين لانجازه ، وستظل رحلة الربيع ، أو حركة الارتباع التى التفت اليها ذكاء عمرو المتوقد ، محتفظة ، بمكانها المرموق ودورها البارز فى ذلك كله .

## رجال متمردون

### ١ - جنود من عسل

لعبت مصر دورا أساسيا فى الثورة التى أنتهت بمصرع الخليفة عثمان فى ذى الحجة ٣٥ هـ . وفرض الخليفة الجديد ، على بن أبى طالب ، سلطانه على مصر اذ كان له فيها أنصار أقوياء من نفس الزعماء الذين نفذوا الانقلاب الخطير . وسرعان ما تكتل - كرد فعل مضاد - المطالبون بدم عثمان فى تشكيل عسكري قوى ، وتمردوا على السلطة الجديدة ، وأشتبكوا معها فى صراع مسلح فى الصعيد وفى الشمال أنتهى بهم الى أن عسكروا فى خربتا يرقبون سير الحوادث بعيدين عن السلطة المركزية التى اضطرت الى مهادنتهم .

وهكذا لم تصبح مصر ميدانا صريحا للصراع بين المعسكرين منذ اللحظة الأولى فحسب ، ولكن أصبحت كذلك العامل الحاسم فى هذا الصراع اذ كان واضحا أن النصر النهائى سيكون فى جانب المعسكر الذى يستطيع أن يتحكم فى موقعها الهام ويسيطر على مواردها الضخمة . ولما كان عمرو بن العاص ، القائد الخبير بمصر ، يعرف ذلك تماما ، وكان فى الوقت نفسه يتحرق شوقا الى العودة الى حكم مصر التى تعدل ولايتها الخلافة فى رأيه ، فإنه لم يكف عن تحريض معاويه ، زعيم المعسكر العثمانى القائم فى دمشق ، على المبادرة الى أنتزاع مصر من قبضة على .

وبالرغم من أن العثمانيين المعتصمين فى خربتا كانوا عشرة الاف من وجوه أهل مصر ، فإن والى على هناك - قيس بن سعد الصحابى ، الانصارى ، السيد ، الجواد - كان سياسيا حكيما أستطاع أن يعتمد على صلاته الشخصية ببعض زعماء أهل خربتا

وعلى مسلكه الكريم الرفيع ، فى عقد هدنة غير مكتوبة بينه وبينهم ، أخلدوا بعدها الى الهدوء التام .

لكن معاويه الداهية راح يصور سياسة قيس هذه التى شلت حركة العثمانيين فى مصر وحرمته من التسيد عليهم عسكريا ، على أنها اتفاق سرى بينهما ويعمل على أن يصل ذلك الى على الذى لم يلبث حتى شك فى قيس فعزله بعد أربعة أشهر فقط " رجب ٣٧ هـ " .

لم يكن معاويه قد فرغ بعد من تلقى التهنة بنجاح سياسته حتى فوجئ بعلى يختار لمصر رجلا عنيفا من رجال الحرب لا يعدل بطولته وبطشه سوى ولائه لعلى ذلك هو الاشترا النخعى ، مالك بن الحارث الذى أثار العجب والاعجاب فى موقعه الجمل ( ٣٦ هـ ) حين تماسك مع عبد الله بن الزبير ابن أخت عائشه - وكان أيضا من الابطال فلم يزل يضربه حتى كاد يمزق أعضائه لولا قرابته من رسول الله ، وعبد الله يصيح وهو واقع تحته :

اقتلانى ومالكا وأقتلا مالكا معى

لم تفقد المفاجأة السيئة معاويه دهاءه ، بل بادر الى التدبير للتخلص من هذا الوالى الجديد الذى توقع أنه سيجد فيه خصما شديدا المراس . فاتفق مع صاحب خراج القلزم على اغتياله حين وصوله اليه فى طريقه الى عاصمة حكمه ، وذلك فى مقابل مكافأة كبيرة .

وصل الاشترا القلزم قادما من العراق ، ونزل ليستريح ويريح دوابه استعدادا للجزء الأخير من الرحلة الشاقة . فقدم اليه صاحب الخراج تكريما له ، ووفاء بحق ضيافته طعاما من بينه عسل مسموم لم يكد يشربه حتى مات .

طار الخبر الى عاصمة الدسائس دمشق ، فارتاح معاويه الى النجاح الجديد الذى أحرزه ضد منافسه على . فى حين علق عمرو على ذلك اللون الغادر من الصراع بقولته الساخرة : " أن لله جنودا من عسل ! "



أما على فقد جزع لفقد الاشتتر جزءا شديدا ، وراح يتفجع عليه  
بقوله : "لله مالك ، لو كان جبلا لكان من جبل فندا ، ولو كان من  
حجر لكان صلدا . مثل مالك فلتبك البواكى . فهل موجود كمالك ؟"  
فوالله - يقول الراوى - مازال متلهفا عليه ومتأسفا حتى رأينا أنه  
المصاب دوننا .

وشاركت النساء الرجال فى بكاء الاشتتر بشعر جميل سجل  
بطولته وشجاعته مثلما صور مصرعه الغادر اللئيم . قال أحدهم :  
فقل لابن هند : لو منيت بمالك  
وفى كفه ماضى الضريبة باتك  
لألفيت هندا تشتكى عمن الردى  
تنوح وتحبوها النساء العواتك

## ٢ - ولكن الله أراد خارجة

محمد بن أبى بكر الصديق هو الوالى الذى هب له أن يشغل  
المنصب الحساس الشاغر فى مصر عام ٣٧هـ . ولم يمنحه على  
ثقلته لأنه ابن الصديق الاول للرسول فحسب ، ولكن لأنه ربيبه كذلك  
وشهد معه الجمل وصفين . ولاشك أن حداثة سن الوالى الجديد ،  
الى جانب بعض صفاته الشخصية ومنها : الغرور والتسرع ، هى  
التي دفعته الى أن يبدأ حكمه بالتحرش بالثوار القابعيين فى  
خربتا ، فهدم دورهم فى الفسطاط ، ونهب أموالهم ، وسجن  
ذراريهم . ولكنه لم يلبث حتى كف عنهم حالما تأكد من وعورة  
جانبيهم . ثم ارتكب خطأ فاحشا عندما أثر السلامة فتوهم أن خير  
حل لمشكلتهم أن يسمح لهم - وهم عشرة الاف مقاتل ، أى جيش  
كامل - بالخروج من مصر الى الشام حيث انضموا الى قوات  
معاوية التى تتحين الفرصة للانقضاض على مصر . أدرك معاوية  
أن الكمثرى قد نضجت فأذن لعمره - تنفيذا لاتفاق مفروغ منه -  
أن يتحرك لقطافها . وأستطاع عمرو ، الذى يعرف كل شبر فى

مصر أن يفتحها للمرة الثانية بعد معركة رهية في المسنة في  
صفر ٣٨ هـ .

وبذلك تمت مرحلة هامة في الصراع بين على ممثل الاتجاه  
المثالي ومعاويه ممثل الاتجاه الواقعي . غير أن الامر بدا غريبا في  
الدولة الاسلامية ، ففي الكوفة يوجد على الخليفة الرسمي الذي  
لا يتجاوز نفوذه حدود العراق وشبه الجزيرة في حين يقوم معاويه  
في الشام خليفة غير رسمي له استقلاله التام ونفوذه الكامل . وفي  
مصر يتبع عمرو سياسة معاويه ولكنه مطلق التصرف في خراجها  
يستولي عليه كله بعد أن يدفع مرتبات الجند ونفقات الشئون  
العامة . وهكذا بدت الجماعة الاسلامية منقسمة على نفسها  
انقسامًا خطيرا ولما يمض على وفاة النبي سوى ربع قرن . هال  
ذلك بعض الرجال المتحمسين من حزب الخوارج ، فظنوا أن  
القضاء على زعماء الاحزاب يقضى على الاحزاب نفسها ويقضى  
بالتالى على الانقسام ويعيد الى الامة وحدتها ، وصمموا على  
اغتيال على ومعاويه وعمرو في ليلة واحدة ( ١٧ من رمضان سنة  
٤٠ هـ ) .

كان المتآمرون أخوة ثلاثة ، أسهم الزعيم منهم - عبد الرحمن  
بن ملجم في فتح مصر ، وأختط بالفسطاط ، وأخذ لنفسه مسجدا  
بها ، وقد جمع بين التفوق العسكري اذ كان فارس قومه المعداد  
فيهم ، والتفوق العلمي اذ كان من قراء القرآن وأهل الفقه ، قد قرأ  
القرآن على معاذ بن جبل باليمن ، حتى أن عمر بن الخطاب أمر أن  
يخصص له منزل بقرب المسجد ليعلم الناس القرآن ، ثم انتقل الى  
مذهب الخوارج مثله مثل كثير من القراء .

وفي الموعد المحدد توجه كل من المتآمرين الثلاثة - عبد  
الرحمن ، وقيس ويزيد - الى المسجد الجامع ليقتك بصحبه في  
صلاة الفجر . وتدخل القدر بالنسبة الى عمرو اذ عرض له عارض  
منعه من الخروج الى الصلاة ، فأتاب عنه صاحب شرطه - وكان  
يستخلفه عادة كلما تغيب - خارجة بن حذافة الصحابي الذي كان

يعد بألف فارس حتى أن عمر جعل عطاءه في مائتين تقديرا لشجاعته والذي تزوج من امرأة قبطية من سبى سلطيس وأنجب منها ، والذي كان أحد زعماء العثمانيين في مصر ، والذي ظل يخدم عمرو بن العاص منذ معارك الفتح حتى تلقى الطعنة القاتلة بدلا منه في تلك الليلة الموعودة .

قبض المصلون على القاتل يزيد بن ملجم ، ودخلوا به على عمرو ، فلم يحاول انكار هدفه الحقيقي اذ قال لعمرو "أنا والله ما أردت غيرك يا عمرو" وأجاب عمرو المحظوظ في هدوء وسخرية : "ولكن الله أراد خارجة" وظل عمرو ثلاث سنوات كاملات بعد ذلك يتمتع بالحياة والمجد والسلطان حتى أدركته منيته في فراشه ليلة عيد الفطر سنة ٤٣ هـ وهو الذي ظل طول عمره يتعامل مع الموت وجها لوجه ويقول : "ما كنت بشيء أتجر مني بالحرب" .

### ٣ - أذكروا أبا سليمان

اضطر الخليفة الوليد بن عبد الملك الى أن يعزل أخاه عبد الله عن مصر سنة ٩٠ هـ بعد أن حكمها أربع سنوات لم ينجح في خلالها الا في اثارة سخط الرأي العام عليه وكراهية الشعب له نتيجة ارتشائه ، وانصرافه الى الملذات ، واشتد الغلاء في أيامه حتى هجاه شعراء مصر وسخروا منه سخرية قاسية .

وكان الطبيعي أن يبدله الخليفة بوال كفاء يصلح ما أفسد سلفه غير أن الوليد زاد الطين بلة - كما يقال - حين أرسل قرعة بن شريك ليحكم مصر أربع سنوات كاملة ، كل ما فعل فيها من اصلاح أنه "دون الديوان الثالث" أي أعاد كتابة اسماء الجند ومرتباتهم في السجلات الخاصة بذلك للمرة الثالثة منذ الفتح تمشيا مع ما طرأ من تغيرات ، وأنه زاد في المسجد الجامع ، وزوقه ، وذهب رؤوس بعض أعمدته ، وأصلح قبلته ، وجعل محرابه مجوفا ، ونصب فيه منبرا جديدا لم يلبث حتى أصبح أقدم منبر في العالم الاسلامي بعد منبر النبي نفسه .

فيما عدا ذلك يقول عنه التاريخ :

كان خليعا ، من أظلم خلق الله ، سيىء التدبير ، ظالما غشوماً ، فاسقا متهتكا . قيل أنه كان اذا أنصرف الصنيع من بناء المسجد دخل المسجد ودعا بالخمير والطبل والمزمار فيشرب ويقول : « لنا الليل ولهم النهار » . وأنزل بلايا عظيمة على أصحاب عبد الله . والنصارى والمسلمون طرحهم فى السجون ، أقاموا فيها سنة . ولما ذهب اليه البطرك يهنئه بالولاية وفقا للتقاليد المتبعة طالبه بمبلغ كالذى دفعه لعبد الله بن عبد الملك "ولو أنه يبيع لحمه" وأنتهى به الامر الى أن أغلق مقر البطركية وأخذ كل ما فيه من الاوانى والذهب والفضه والكتب والبهايم ، وكان كل أرخن ( رئيس ) يموت يأخذ جميع ماله ، حتى الاساقفة أخذ ميراث الجميع . وزاد على البلاد مائة الف دينار سوى خراجها المعروف . وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه . وكان عمر بن العزيز يعتب على الوليد لتوليته . وقد قال عمر يوما : "الحجاج بالعراق والوليد بالشام ، وقره بن شريك بمصر وعثمان بالمدينة ، وخالد بمكة ! ! . اللهم قد أمتلات الدنيا ظلما وجورا فأرح الناس" .

ضاق الناس صدرا بالظلم الموصول ، والعذاب الطويل . ولم يكن بد من حل .

خرج قره ، بعد عام من توليه مصر الى الاسكندرية يزورها ، ويطلع على مجالى الحسن فيها . ويستمتع بجوها القريب من جو دمشق . وكان فى الاسكندرية فرع قوى لحزب الخوارج ، يضم حوالى مائة من الرجال الاشداء ، يتزعمهم المهاجر بن أبى المثنى أحد أفراد قبيلة تجيب ذات النفوذ والثراء والسلطان . ووجدها الخوارج - وكانوا يعبرون عن ارادة الجماهير ، ويمثلون المعارضة الشعبية - فرصة سانحة فها هو ذا الحاكم الطاغية ، العابث بمقدرات الناس ، الذى يتخذ الحكم مركبا الى أرضاء نزواته ، قد سعى اليهم بقدميه ، وهو فى الاسكندرية بعيد عن العاصمة وسلطتها المركزية القوية ، وهم أدري بمدينتهم ، ويستطيعون أن

يتحینوا الفرصة المناسبة زمانا ومكانا للانقضاض علیه ووضع حد لحكمه الاستغلالی الماجن البشع ، ویتفرق دمه علیهم فیضیع فیما بینهم ، ویكون دمه فی الوقت نفسه خیر قربان یتقربون بسفكه الى الله .

اجتمع الرجال الفدائیون عند منارة الاسكندرية - وكانت ماتزال قائمة - فتداولوا الرأى ، ورسموا خطتهم ، وبایعوا زعیمهم ابن أبی المثنی وألقوا الیه قیادة تنفیذ الخطة .

لاشك فی أنهم قد غلبهم الحماس وهم یتناقشون فلم ینتبهوا الى ذلك الرجل القابع غیر بعيد ، یبدو غیر ملق بالا الى المناقشات الحامية الدائرة والخطط التي ترسم والبیعة التي تؤخذ . ونهض ابو سلیمان - وكانت هذه کنیته - دون ان یثیر انتباه أحد وأتجه مباشرة الى مقر الامیر قره بن شریك فأفضی الیه بالامر كله .

لم یكن قره الرجل الذی یضیع وقته ، فأرسل فی الحال قوة قبضت علی المتأمرین وهم ما يزالون منهمکین فی مجلسهم عند منارة الاسكندرية التي رسموا مؤامرتهم فی قاعدتها وأرسل فی طلب رجال الدولة الموجودین بالمدينة ، فلما اجتمعوا جلس یحقق مع المتأمرین فی حضرتهم سألهم قره عما بلغه ، ولما لم یكن الخوارج لیکذبوا أو یجبنوا أو یتراجعوا فقد اعترفوا اعترافا صریحا لاشك فیهِ . ولما كان الاعتراف سید الادلة فقد رأى قره ، الذی لا یبالی شیئا ، فیهِ حجة كافية لیصدر علیهم جمیعا الحكم بالأعدام .

فشلت المؤامرة ، ونجا الامیر المکروه ودفع الشعب الثمن غالیا - فائة من أشجع الرجال المتمرسین علی القتال الجاهرین بالحق - وضاعت فرصة ذهبیة للخلاص .

وكان رجل من الخوارج لم تتناوله المذبحة الرهیبة لسبب أو لآخر ، وكان قلبه ینفطر حزنا علی رفاقه فی المذهب وصدره یغلی حقدًا علی الحاکم المفترس ، وضمیره یثقله شعور بالعار لا یخلصه منه الا الانتقام . وكان قره نفسه أقل ثمن یمکن أن یرضی به فی



مقابل رفاقه المائة ، ولكن دون ذلك أهوال فأضطرب أن يكف من غلوائه ويقنع بأبى سليمان الذى باع نفسه للشيطان ، وخان الشعور العام وانضم الى عدو الشعب ، ولم يجد الخوارج صعوبة فى الفتك بأبى سليمان . وشىء خير من لاشىء .

وذهب أبو سليمان مثلاً فى التجسس على الشعب لحساب الحاكم . فكان يزيد بن أبى حبيب ، فقيه مصر العظيم ( ت ١٢٨ هـ ) ، اذا أراد أن يتكلم بشىء فيه نقد للحاكم تلفت حواليه وقال ساخراً : " احذروا أبا سليمان " . ولما كانت جرائم التجسس وخيانة الشعب تجد مرتعا خصبا فى حمأة الاستبداد الطاغى فقد كثر من سلك مسلك أبى سليمان فى المجتمع المصرى حينذاك وتفاقم عدد المشتغلين بالتجسس طلبا للامان من الحكم الغاشم بالمعاونة عليه والمشاركة فيه ، ولحظ يزيد بن أبى حبيب هذه الظاهرة الكريهة التى أدت الى ضياع الثقة بين الناس حتى لم تعد حاجة الى التحذير من واحد بعينه ، فقال يوما من ذاك : " الناس كلهم أبو سليمان " . .

أما قره نفسه فقد اتخذ من الجماجم المائة كرسيا تربع عليه ، وظل يستمتع من فوقه بالحياة والسلطان ويمارس العريضة والاستبداد حتى مات عام ٩٦ هـ ودفن فى رمال المقطم التى طالما ضمت الخالدين .

#### ٤ - أين صلاتك يا وهيب ؟

فى سنة ١٠٤ هـ قام أسامة بن زيد صاحب الخراج بمصر - وكان يلجأ الى آعنف الأساليب لاستخراج أكبر قدر ممكن من المال ارضاء لسيدته فى دمشق - بمهاجمة الدير وهدم الكنائس . فلما قام هشام فى الخلافة سنة ١٠٥ هـ كتب اليه بأن يجرى النصارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد . ولذلك وصف مؤرخو القبط هشاما بأنه " كان رجلا خائفا من الله على طريق الاسلام ، وكان محبا لسائر الناس ويخلص الارتدكسيين " .

"وكان عنده رجل مسلم يحب البيع الارتدكسيه ، فلما نظره الملك هشام يفعل ذلك فرح جدا ، وولاه مصر وأوصاه أن يفعل الخير مع بنى المعمودية" .

"وهكذا كانت أمور الابسقوبية - الاسقفية - والبيعة الارتدكسيه نامية مستقيمة حتى عادت الى ما كانت عليه أولا وأكثر ، الى أن صارت كأنها لم تنهب أولا . وبمنعمة السيد المسيح كانت البيعة تنمو بغير مقاوم لها ، ولاشفاق فيها" .

وانتهز النصارى فرصة العهد المتسامح - وكانت لاتعرض الا نادراً ليحلوا ما أمكن من مشكلاتهم التي كان منها أن نساءهم وأولادهم كانوا في ذهابهم الى الكنائس الداخلة بالفسطاط وعودتهم منها لايأمنون من معترض يعترضهم ، وخاصة في ليالى صوم الاربعين ، اذ لم يكن لهم بد من اختراق الاحياء الاسلامية الخالصة فشكوا ذلك الى الوليد بن رفاعه والى مصر حينذاك وسألوه - كحل للاشكال - أن يأذن لهم في اعادة بناء كنيسة أبى مينا الموجودة في حى الحمراء الذى يقع خارج الفسطاط . وتمشياً مع موقف الخليفة المتسامح من الذميين آذن الوليد لهم . وكان ذلك عام ١١٧ هـ .

لم يكد الخبر يعرف حتى ثارت ثائرة الراى العام ظناً بأن فى ذلك خروجاً على تعاليم الدين ، وتساهلاً غير مشروع ازاء الاديان المخالفة للدين الرسمى ذى السيادة . وكان الخوارج - شأنهم دائماً - لسان الراى العام ، ومظهر ارادته ، وأداة تنفيذ هذه الارادة . وتصادف أن كان فى الفسطاط فى ذلك الوقت خارجى يدعى ( وهيب اليحصبى ) قد قدم من اليمن موطنه الاصلى منذ قليل ونزل على قبيلة يحصب القوية المقيمة بالفسطاط منذ الفتح ولما كان وهيب مايزال قريب عهد بالبداوة وعنفها وتمردھا الى جانب المبادىء المتطرفة التى يعتنقها ، فما ترامى الخبر الى سمعه حتى استشاط غضباً وأعلن خروجه على الوالى الذى خرج

يدوره على الاسلام خروجا يوجب أن يدفع حياته نفسها، ثمنا له .  
وكانت خطة وهيب لاغتيال الوالى بسيطة وجريئة فى نفس الوقت  
كما هى خطط القدائين دائما . فقد راح يتعقب الوالى فى غدوه  
ورواحه يتحين فرصة مناسبة لينقض عليه ويفتك به . ولكن حراس  
الوالى سرعان ماكشفوا أمره ، فأخذوه وقتلوه .

كان فشل وهيب زيتا صب على النار المشتعلة . وأحدث رد فعل  
عنيفا فى أوساط القراء - حملة القرآن الذين نبت الخوارج أصلا  
فى بيئتهم ، وأفرخوا بين أحضانهم ، وورثوا عنهم ميلهم الى  
المعارضة العنيفة - فتجمعوا فى جزيرة الفسطاط التى بين  
الجسرين - جزيرة الروضة حاليا - بزعامة شريح بن صفوان  
التجيبى والدحيوه بن شريح الفقيه المشهور ، وأعلنوا الثورة على  
الامير الذى قتل زميلهم . وخشى الوليد أن تندلع نار الفتنة ويتسع  
نطاقها فبادر بإرسال قوات الدولة الى القراء الثائرين فى الجزيرة  
الصغيرة حيث دارت معارك دامت أياما كانت معونة امرأة . وهيب  
الشارى ، تطوف فى خلالها ليلا على منازل القراء تحرضهم على  
الطلب بدم زوجها المظلول .

لم يكتف الوليد بقتل وهيب بل أراد أن يشرك قبيلته فى جرمه  
فقبض على مروان بن عبد الرحمن عريف قبيلة يحصب فى مصر  
وعدد من رجالها ووجه اليهم تهمة التواطؤ مع وهيب على اغتياله .  
نفى مروان الاتهام ، وأنكر معرفتهم بميول وهيب السياسية .  
ووصف وهيبا بأنه طارئ نزل عليهم لاعلم لهم به وليس من العدل  
أخذهم بجريته ، قال : انما هو داف دف علينا لاعلم لنا به ، وقد  
كان ابليس مع الملائكة فعصى فلم يؤاخذهم الله بمعصيته ) . ولم  
يعجب الوليد بالحجة الذكية فحسب وانما اقتنع بها كذلك فخلى  
سبيل مروان وأصحابه .

ولم يكن للقراء قبل بمقاومة قوات الدولة فلم يلبثوا حتى كفوا عن  
المعركة الخاسرة وتفرقوا .

وهكذا ضاعت مغامرة وهيب الفاشلة ، وظل الناس يضربون به  
فى أن الاجتهاد فى العبادة وحده لا يكفى لتغيير الواقع ، بل يحدث  
أن يكون وبالاً على صاحبه ، فيقولون : أين صلاتك يا وهيب ؟

## ٥ - الخراج دائما

فيما بين عامى ١٤٤ - ١٥٤ هـ كان محمد بن سعيد بن عقبة  
يلى خراج مصر من قبل أبى جعفر المنصور وكان - وفقا للنظام  
المتبع حينذاك - يعين على الكور - أى الاقاليم - موظفين من جهته  
يقومون بجمع الخراج منها . فحدث أن أستعمل على أتريب - كوره  
شرقى مصر عاصمتها عين شمس - موظفا يدعى ابن عتبه ، وكان  
عنيفا ، فأغلظ على أهل "أتريب" وأساء معاملتهم . وكان ينزل  
أتريب قوم من قبيلة مراد نالهم شىء من غلظة ابن عتبه ، فغضب  
لهم واحد من قبيلتهم يدعى ابن شجره وكان يعمل فى قوات  
الشرطة بالفسطاط . وبالرغم من أن المحافظة على أرواح الناس  
هى مهمته الاصلية بما هو احد رجال الامن ، فقد غلبته عقليته  
القبلية وصمم على اغتيال ابن عتبه انتقاما لأبناء قبيلته من جهة  
وليريح أهل اتريب من سخافاته من جهة أخرى .

وكانت خطة ابن شجرة بسيطة جدا إذ لم يفعل أكثر من أن  
امتطى جواده ووقف امام ديوان الشرطة - وليس فى ذلك ما يريب -  
ينتظر أن يربه غريمه الذى لاشك فى أنه كان على علم بمواعيده .  
غير أنه قبل ذلك حرص - كجزء من الخطة - على أن يطلى سيفه  
مدادا حتى لا يظهر بريقه وهو يسله فى الظلام .

وطال بأبن شجرة تربصه أو قصر - لاندري - ولكن الليل كان قد  
اسدل ظلامه على طرقات الفسطاط المعتمة حين خرج ابن عتبه من  
ديوان الخراج راجعا الى منزله ممتطيا جواده . وهمز ابن شجره  
فرسه وانطلق يظنه من يراه ذاهبا للمرور . وما هى الا خطوات حتى  
أدرك غريمه فجرد سيفه الأسود فى الظلام وأهوى به على رأسه .

وترشح ابن عتبة من أثر الضربة وسقط من فوق جواده وقد سبقته  
قلنسوته تتدحرج على الأرض . ربما كانت المفاجأة أفقدت ابن  
عتبه توازنه فسقط ، وربما كان هو قد القى بنفسه ليوهم عدوه أنه  
أصيب . وأيا كان الامر فان ابن شجره لما رأى القلنسوة تتدحرج  
لم يشك لحظة في أنها رأس غريمه ، فاطمأن الى نجاح خطته  
وتحقق هدفه ، فركب جواده وأستدار حوله وعاد الى موقفه الاول  
من ديوان الشرطة . وأقبل الناس على الضجة فوجدوا ابن عتبة  
ملقى لم يصبه شيء وقام وواصل السير الى منزله .

أولى محمد بن سعيد بن عقبة صاحب الخراج الحادث أهمية  
كبيرة فأرسل الى مؤسسه ابن عتبة يسأله عن حاول اغتياله . ولما  
كان ابن عتبة يجهل الجانى ، ولكنه يعلم فى نفس الوقت أن أهل  
أتريب يحقدون عليه معاملته القاسية لهم ، فقد القى التهمة على  
أهل أتريب كلهم وكان فيهم فقيه مصر العظيم الجليل الليث بن  
سعد . وبادر محمد بن سعيد فألقى القبض عليهم وحبسهم بما  
فيهم الامام الليث بالرغم من ارتفاعه عن الشبهات . وقد اهتز  
الامام اهتزازاً عنيفاً ، مع أنهم سرعان ما خلوا سبيله ، وكان يقول :  
« ان هذا لشيء ما سألت الله العافية منه قط . انى متهم فى قتل  
نفس » .

. كان طبيعياً الا يسفر التحقيق مع أهل أتريب عن شيء ، فقد  
نفى كل منهم التهمة عن نفسه نفياً باتاً . ولم يجد محمد بن سعيد  
بدا من رفع الامر الى الخليفة فى بغداد يخبره أن ابن عتبة يجهل  
من اعتدى عليه الا بالظنة ، ويسأله الراى . فكتب الخليفة برأيه  
وأرسله الى قاضى مصر بما هو جهة الاختصاص . وتنفيذا لكتاب  
الخليفة أرسل القاضى الى المتهمين المحبوسين فأطلق سراحهم  
وحفظ القضية ضد مجهول .

لم يقنع محمد بن سعيد بهذه النتيجة ، وخشى أن تؤثر تأثيراً  
سلباً على سير عمله وعلى مركز الموظفين الذين يعاونونه ، فصمم



أعلى عقاب أهل أتريب بصورة ما فمضى يبحث عن رجل « حازم »  
يوليه على خراج أتريب بدلا من ابن عتبه بما صنعوا . ولم يلبث  
حتى وفق إلى رجل يدعى الخزرج بن صالح ! استطاع أن ينسى  
أهل أتريب سلفه في سوء المعاملة والغلظة . وبلغ من وقاحته أن  
كان يخاطب الموظفين الذين يعملون معه بقوله :  
"يا بن الفاعلة - لا يكنى - : والله لئن لم تجيء بكل اسم أخرجته  
إليك لأفعلن بك ولافعلن" .

أما بن شجرة الفاعل الحقيقي فقد ظل يأسف على الفرصة التي  
أفلتت منه ويقول :  
"لو علمت أن الذي سقط القلنسوة ما زلت حتى أزيل رأسه"

## شخصيات نسوية

عندما خطا الرجل المصرى خطواته الأولى فوق أرض الوادى المباركة ، منذ آلاف السنين ، يروض النهر ، ويستأنس الحيوان ، ويتألف النبات ، ويقيم البيت ، ويغزل الثوب ، ويطهو الطعام ، لم يكن وحده ، فقد كان معه - جنبا الى جنب ، ويدا بيد ، وخطوة بخطوة - زميله الانسانى ، وشريكه الحيوى ، ونصفه الأحدى : المرأة ، المرأة المصرية ، تفتتح معه مرحلة جديدة رائعة فى حياة الجنس البشرى ، مرحلة الحياة المدنية التى تزرع وتصنع ، وتنتج وتتجر ، وتبنى وتنحت ، وتخابر وتسالم ، وتتعبد وتتدين ، وتبحث وتفكر ، وتكتب وتقرأ ، وتشعر وتقنن ، وتتأدب وتتفنن .. الى آخر كل الاساليب الحضارية التى لم تزل توجد وتنمو وتتقدم منذ بداها الانسان المصرى هناك حينذاك .

والآثار التاريخية سواء كانت صورا مرسومة ، أو نقوشا محفورة ، أو تماثيل منحوتة ، أو كتابة مدونة ، أو أخبارا مروية تشهد جميعا بأن المرأة المصرية مازالت منذ اضطلعت بدورها فى قصة الحياة تقوم به حتى اللحظة ، لم تعتزل ، ولم تختف ، ولم تنسحب . كما تشهد هذه الآثار نفسها بأن هذه المرأة الخالدة قد لعبت دورها فى كل مكان : فى البيت زوجة وأما ، وفى الحقل فلاحة ، وفى السوق تاجرة ، وفى الفن مغنية وراقصة ، وعلى العرش ملكة ، وفى الأساطير إلهة .



لما فتح العرب مصر ٢٠ هـ ، وأقاموا بها الحكم الاسلامى ، أصبح المجتمع المصرى - مثله مثل سائر المجتمعات الاسلامية - يتكون من أربع طبقات . ففي قاعدة الهرم الاجتماعى يوجد الرقيق

أسرى الحروب والمشترون بالمال . أما الذميون ، أهل الكتاب المسيحيون واليهود ، الذين أثروا أن يحتفظوا بدينهم فى مقابل أداء ضريبة معينة هى الجزية ، فقد كانوا يشكلون الطبقة التالية التى تعلو طبقة الرقيق . وكثيرا ما كان يحدث أن يعتق الرقيق فيصبح حرا ، وأن يتحول الذمى عن دينه الى الاسلام ، وكان هؤلاء حينئذ يطلق عليهم اسم : الموالى ، ويكونون طبقة أرقى فى المجتمع . أما الطبقة العليا التى تتربع على قمة الهرم الاجتماعى فتتكون من العرب الفاتحين .

\* \* \*

### أولا : من الرقيق

#### ١ - الجارية الجدعاء :

إذا كان الاسلام قد أعترف بالرق من جهة ، فإنه من جهة أخرى قد دعا الى حسن معاملة الرقيق ، مثلما فتح الباب امامهم على مصراعيه لينالوا الحرية . وليس هنا مجال مناقشة هذا الموضوع الهام . ولكننا نقابل فى مصر مثالا رائعا .

قبيلة حمير قبيلة عربية - يمنية على وجه التحديد - كبيرة . أشتركت فى فتح مصر ، ذات نفوذ ادبى ومادى وعسكرى كبير . وكان طبيعيا جدا أن يملك أفرادها العبيد من الرجال والاماء من النساء . وحدث يوما - وهو ما يحدث كل يوم - أن أتت احدى الاماء ما يستوجب العقاب . ولكن سيدتها الحميرية لما عاقبتها تجاوزت الحد فقد "جدعتها" أى قطعت أنفها . ولما كان ذلك اعتداء جسيما على الامة فقد سارعت الى عبد الرحمن بن حجية القاضى العربى العظيم الذى ولى قضاء مصر من ٦٩ - ٨٣ هـ ، تشكو اليه سيدتها . وقدر القاضى المنصف فداحة الضرر الذى لحق بالامة نتيجة للعاهة المستديمة التى اصابتها ، وماترتب على ذلك من تشويه بليغ لها بما هى انثى يشكل المظهر الخارجى عنصرا هاما من شخصيتها . كما قدر فى الوقت نفسه وحشية العقاب . لذا لم يكن التعويض الذى قضى به للامة سوى الحرية نفسها ، فقد

أعْتَقَهَا . ليس هذا فحسب ، فقد حرص القاضي اليقظ على أن يكفل للأمة حياتها المادية فقضى بولائها للمسلمين يعقلون عنها ويربونها : أى أنه رفعها من طبقة الرقيق الى طبقة الموالى ، وجعل ولاءها فى يد الدولة نفسها تتولى الانفاق عليها وتحمل المسئولية عنها .

## ٢ - الجارية الأدبية :

معلّى بن أعلّى الطائى ، أو المعلّى الطائى على وجه الاختصار ، شاعر لمعت شخصيته فى مصر فيما بين عامى ١٩٤ - ٢١٤ هـ . وفى هذه الفترة التى سادها الاضطراب العنيف عاش هذا الشاعر غارقا فى السياسة حتى اذنيه ، يتصل برجالها فيمدحهم أو يذمهم أو يرثيهم أو يسخر منهم وفق الظروف ، ولكنه يكسب فى خلال ذلك كله أموالا كثيرة ينفقها على بناته اللاتى قال فيهن ابياته المشهورة :

لولا بنيات كزغب القطا

حططن من بعض الى بعض

لكان لى مضطرب واسع

فى الأرض ذات الطول والعرض

وأنما أولادنا بيتنا

أكبادنا تمشى على الأرض

أن هبت الريح على بعضهم

لم تشبع العين من الغمض

وكان للمعلّى جارية أسماها "وصف" لعله ظفر بها جائزة على

أحدى مدائحه ولعلها أهدت اليه اهداء ، ولعله - وهذا مستبعد

جدا - قد اشتراها . وأيا كان الأمر فإن وصفا كانت جارية غير

عادية إذ كانت "أدبية شاعرة" ولم يكن من النادر أن تكون الجارية

أدبية شاعرة ، فإن ذلك كان يرفع من ثمنها فى السوق مثلما يرفع

من مكانتها عند سيدها . ونستطيع أن نتوقع أن الجارية كانت

سعيدة بسيدها الأديب الشاعر ، وأن الشاعر كان سعيدا بجاريته  
الادبية الشاعرة لاسيما اذا عرفنا ان وصفا جمعت الى ذلك الامتياز  
الفنى الثقافى امتيازاً حسياً شكلياً فقد كانت شابة ، غانية ، ريا  
العظام ، سوداء الشعر غزيرته ، عيناها واسعتان وطفوان فيهما من  
الحنان والرعاية مافى عينى الظبية التى ترعى طفلها .

ولكن المعلى الطائى كان - ربما بسبب أعبائه العائلية - شديد  
الحب للمال أو شديد الحاجة اليه . لذلك لم يتردد فى أن يتخلى عن  
جاريته الثمينة عندما عرض عليه ذات يوم أربعة آلاف دينار - أى  
ألفان من الجنيهات فى ذلك الزمن السحيق - ثمناً لها . وعلمت  
الجارية بما أبرمه سيدها فى أمرها . فلما عاد سعيداً بصفقته  
الرابحة سألته تستوثق من الخبر : بعتنى يامعلى ؟ قال الشاعر  
الذى نسى وجدانه فتحول الى نخاس : نعم . افأقت وصف من  
وهمها الكبير على واقعها التعس الذليل الذى طالما خدعت نفسها  
عنه . هى أذن ليست أديبة ولا شاعرة ، والمعلى ليس أستاذاً ولا  
زميلاً . ليست سوى جارية والمعلى سيدها . وليس الفن هو ما  
يجمع بينهما ، ولكن الاستعباد . وما تحمل فى قلبها نحو سيدها لا  
يقابله من جهته شيء . ليست فنانة ولا حتى أنسانة . ماهى الا  
سلعة .. متاع .. شيء .

نظرت وصف الى سيدها وفى عينيها الجميلتين كل العتب ، وكل  
الآلم ، وكل خيبة الأمل ، وكل الفجيعة وقالت : والله لو ملكت منك  
مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها .

هناك ثاب الشاعر الى نفسه ، واسترد وجدانه ، وانتبه على  
الخطيئة البشعة التى أقترفها فى حق زميلته فى الفن ، وأدرك أن  
الصلة الروحية أثمن من المال ولو كان ألفاً مؤلفة من الدنانير .  
فهم السيد الدرس الانسانى العميق الذى لقنته أياه جاريته ،  
فجرى الى صاحبه ، ورجع عن البيع ، ورد اليه الدنانير . لكن كان  
الوقت قد فات . فإن وصفا الادبية الشاعرة ، الانسانة الفنانة ، لم  
تستطع ان تبرأ من الصدمة الرهيبة التى حطمت اعصابها ،



وسحقت كبرياءها ، وخلعت عنها ثقتها فى نفسها ، وسلبتها ايمانها  
بحقها فى البقاء ، فماتت بعد ثمانية ايام . وهكذا خسر الشاعر ،  
فى لحظة من لحظات الانانية والتنكر للرسالة ، خسارتين ، وأصيب  
مصيبتين . وأهتز فيه وجدان الفنان الاصيل فرثى صاحبه الراحلة  
فى قصيدة جميلة منها :

ياموت : كيف سلبتنى وصفا ؟

قدمتها وتركتنى خلفا

هلا ذهب بنا معا ؟ فلقـد

ظفرت يـداك فسمتنى خسفا

وأخذت شق النفس من بدنـى

فقبرته وتركت لى النصفا

فعليك بالباقي بلا أجل

فالموت بعد وفاتها أعفى

\* \* \*

### ثانيا : من اهل الذمة

ما أن دخل العرب مصر حتى تم الاتصال بينهم وبين السكان  
الوطنيين - المصريين - منذ اللحظات الأولى . واتخذ هذا الاتصال  
صورا مختلفة منها المصاهرة . فقد تزوج الصحابى يزيد بن عبد  
الله بن الجراح ، احد رجال الفتح وأخو الصحابى الشهير أبى  
عبدة بن الجراح ، من مصرية مسيحية .

وفى عام ( ٢٥ هـ ) هاجم البيزنطيون الاسكندرية ، واحتلوها  
من جديد ، وساروا منها الى القسطنطينية . وأنتهزت بعض العناصر  
القبطية الموقف فأنضمت اليهم ، وأعلنت التمرد على الحكم  
العربى فى عدد من قرى شمال الدلتا من بينها قرية سلطيس .  
ولكن العرب لم يلبثوا حتى قمعوا ذلك التمرد ، وطردهوا البيزنطيين ،  
وطهروا الاسكندرية تطهيرا ، كما اسروا وسبوا عددا هائلا من أهل  
القرى المتمردة . واتخذ بعض القادة العرب زوجات من سبائى  
سلطيس بالذات .

فهناك خارجة بن حذافة الصحابي أحد قواد المدد الى عمرو بن العاص في معارك الفتح ، والذي ظل على شرطة عمرو حتى اغتيل خطأ بدلا منه في المؤامرة الثلاثية التي دبرت عام ٤٠ هـ لاغتيال عمرو وعلى ومعاوية ، وكان اغتياله على هذه الصورة منشأ المثل الشهير : "أردت عمرا وأراد الله خارجة" خارجة هذا تزوج سيدة مصرية من سلطيس وأنجب منها ولده عوناً .

أما معاوية بن حديج ( ت ٥٢ هـ ) ، السيد العربي الكبير الذي لعب اخطر الادوار في مصر في عصر الفتح ، فتزعم حركة الانتقام لعثمان ، وأسهم في انتزاع مصر من سلطان على ونقلها الى سلطان معاوية بن أبي سفيان سنة ٣٨ هـ ... معاوية بن حديج هذا تزوج إحدى سبايا سلطيس ، وأنجب منها ابنه عبد الرحمن ( ت ٩٩ هـ ) الذي ولي قضاء مصر وشرطها .

#### ١ - فبرونيا ، الراهبة الحسنة :

عندما دخل الصراع بين الأمويين والعباسيين مرحلته النهائية عام ١٣٢ هـ فر الخليفة الأموي الأخير ، مروان بن محمد ، الى مصر حيث خاض معركته الأخيرة التي خسر فيها ملكه وحياته في قرية بوصير قوريدس ، بوصير الملق الحالية .

وفيما كانت فلول الأمويين اليائسة تنطلق هاربة في أعماق الصعيد يطاردهم العباسيون المنتصرون ، هاجموا أحد الديارات في مدينة اخميم ، فوجدوا فيه راهبة على جانب كبير من الجمال . ووجد الفرسان الذين تشدهم الى الحياة أوهى الخيوط فرصة ليختلفوا على ملكية فبرونيا الراهبة الحسنة التي صممت على ألا يفوز بها الا الموت . فلم تلبث حتى قطعت عليهم جدلهم لتخبرهم أنها تملك ما هو أهم من جسدها الجميل بالنسبة اليهم كمحاربين منهزمين توشك فرصتهم في الحياة أن تنطفئ . زيت عجيب تليت عليه العزائم ، وباركه الآباء ، من يدهن به جسده لم تؤثر فيه السيوف .

رحب الفرسان بالنبأ ، وانصرفوا عن جدلهم ، ووجهوا اهتمامهم إلى هذه المفاجأة التي انبعشت آمالهم في البقاء . لكن شيئاً من الشك ساورهم ، فطلبوا اليها أن يجربوه ، وأن تكون هي نفسها موضع التجربة . لم تتردد فيرونيا لحظة واحدة ، فدهنت عنقها بالزيت ومدته لهم في اطمئنان الواثق من النتيجة . وبني لا عمل لها الا القتال امتشق احد الفرسان سيفه وضرب عنق الراهبة . وعندما طار الرأس عن الجسد ادرك الفرسان ان اسيرتهم أثرت الموت على الاستسلام .

### ٢ - الاقطاعية القبطية :

لما دخل القرن الثالث الهجري كان العرب قد اختلطوا بالمصريين ، وسكنوا الريف ، وملكوا الأرض ، واشتغلوا بالزراعة . وكانت الدولة في الوقت نفسه قد ازدادت عسفاً ، وأرهقت الناس - والزراع منهم بخاصة - بالضرائب . وأصبح العرب والفلاحون المصريون تجمع بينهم مصلحة اقتصادية واحدة . فلما زادت عليهم وطأة الضرائب نتيجة لتلاعب موظفي الدولة ، وفساد ذممهم ، وسوء أدارتهم اشتبكوا معاً في اشعال ثورة دامية شملت الدلتا كلها عام ٢١٧ هـ . ولما عجزت قوات الدولة عن اخماد ثورة الشعب اضطرت الخليفة - وكان المأمون حينذاك - الى أن يحضر الى مصر بنفسه حيث وقف على السبب الحقيقي للثورة . وبعد أن أعاد الخليفة الهدوء الى البلاد مضى يتجول في أرجاء مصر . قال المقرئ : فكان يبني له في القرية التي ينزلها دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله . وكان يقيم في القرية يوماً وليلة . فمر بقرية يقال لها " طاء النمل " فلم يدخلها لحقارتها ، فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز تعرف بمارية القبطية ، صاحبة القرية ، وهي تصيح . فظنها المأمون مستغيثة متظلمة ، فوقف لها . وكان لا يمشي ابداً الا والتراجمة بين يديه من كل جنس ، فذكروا له أن القبطية قالت :

يا أمير المؤمنين : نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي ،  
والقبط تعيرني بذلك . وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلولة  
في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبى ، ولا تشمت الاعداء بي .  
وبكت بكاء كثيرا ، فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه إليها  
ونزل . فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله : كم تحتاج من  
الغنم ، والدجاج ، والفراخ ، والسماك ، والتوابل ، والسكر ،  
والعسل ، والطيب ، والشمع ، والفاكهة ، والعلوفة ؟ وغير ذلك مما  
جرت به عادته . فأحضر جميع ذلك اليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه المعتصم ، وأبنة العباس ، وأولاد أخيه  
والمتوكل ، ويحيى بن أكثم ، والقاضي احمد بن أبى دؤاد ،  
فأحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على أنفراد ، ولم تكل احدا  
منهم ولا من القواد الى غيره .

ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا حتى  
أنه استعظم ذلك . فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه  
ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق . فلما عاينها المأمون من  
بعد قال لمن حضر :

قد جاءتكم القبطية بهدية الريف : الكامخ ، والصحناء ،  
والصبر .

فلما وضعت ذلك بين يديه اذا في كل طبق كيس من ذهب .  
فأستحسن ذلك وأمرها بأعادته .

فقالت : لا والله ، لأفعل . فتأمل الذهب فاذا به من ضرب عام  
واحد كله ، فقال :

هذا والله أعجب . ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك .

فقالت : يا أمير المؤمنين : لا تكسر قلوبنا ، ولا تحقر بنا .

فقال : أن في بعض ما صنعت كفاة ولا نحب التثقل عليك ،

فردى مالك بارك الله فيك .

فأخذت قطعة من الارض وقالت :

يا أمير المؤمنين : هذا - وأشارت الى الذهب - من هذا -

وأشارت الى الطينة التي تناولتها من الأرض - ثم من عدك ياأمير المؤمنين . وعندي من هذا شيء كثير .  
فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعطاهها من قريتها  
طاء النمل مائتي فدان بغير خراج ، وأنصرف متعجبا من كبر  
مروءتها وسعة مالها .

\* \* \*

### ثالثا : من الموالى

على الرغم من أن المجتمع الاسلامى مجتمع طبقى يمكن أن  
نميز فيه طبقات مختلفة تتفاوت تفاوتا حادا من حيث مستوى  
المعيشة ودرجة الثقافة . فهو مجتمع مفتوح يفسح المجال لحركة  
التغير الاجتماعى الى أعلى وإلى أسفل بحيث يستطيع أى فرد فيه  
أن يصعد من قاعدة الهرم الاجتماعى الى قمته عن طريق التفوق  
الثقافى أو المادى أو العسكرى . والعكس صحيح .  
وبفضل ظاهرة الحراك الاجتماعى هذه بلغ العبيد الارقاء ، فى  
المجتمع الاسلامى ، أرقى المستويات العلمية ، وشغلوا مناصب  
الحكم العليا ، وقادوا الجيوش ، وجمعوا ثروات خيالية .  
وفى مصر تزوج عبد العزيز بن مروان ، مؤسس حلوان ، والذي  
حكم مصر كأنه خليفة ( ٦٥ هـ - ٨٦ هـ ) ، من يونانية أسمها  
مارية ، ورفعها الى طبقته الارستقراطية ، وبنى لها قصرا بأسمها ،  
وانجب منها أبنة محمدا . مثلما تزوج ابن حنبل الأصغر ، العربى  
الأصيل ، والذي كان يشغل منصب القضاء الجليل فى مصر فى  
اخريات القرن الأول من مولاة .  
لكن لعل خير نموذج لنساء هذه الطبقة هى "نعم" أم ولد دحية  
ابن مصعب :

- المرأة الدخيلة :

بالرغم من عمليات الإبادة الرهيبة التى قام بها العباسيون  
بالنسبة للأمويين فى مصر استطاع أفراد منهم أن يفلتوا من



المطاردة الدموية ویتیہوا فی جوف الصعید حیث واصلوا حیاتهم فی صمت منتظرین الفرصة المواتية لیأخذوا بثأرهم . وفى عام ١٦٧ هـ لاحت الفرصة لدحیة بن مصعب ، أحد أحفاد عبد العزیز بن مروان - وكان قابعا فی بلدة اهناسیا یحلم بأمجاد الآباء الغابریں ، ویشجع اعمال التمرد من یعید - فأعلن الثورة فی الصعید ، ودعا الی نفسه بالخلافة ، وجمع أموال الضرائب وأستولى علیها ، وبسط سلطانه علی معظم الصعید مفیدا من تراخى والی مصر عنه . وعدم احتفاله بأمره . وبلغ من نجاح ذلك الثائر الأموی المطالب بدماء آبائه أن سكان العاصمة کاتبوه ودعوه الی دخول الفسطاط . واستطاع دحیة أن یحافظ علی نجاحه طوال عامین أنتهیا بانتصار قوات الدولة علیه وفراره الی الواحات . وأنضم أهل الواحات - وكانوا خوارج - الی الثائر اللاجئ الی دیارهم فی صراعه ضد الدولة . غیر أنهم لم یلبثوا حتی تخلوا عنه عندما رأوا أنه یشذ عن مذهبهم فی نقطتین خطیرتین :

فهو یفضل العرب علی الموالی ، ثم أنه عثمانی یؤمن بأن الخلیفة عثمان قتل مظلوما یطالب بدمه . عند ذاك كان لابد أن یهزم دحیة ، ویؤسر ، ویساق الی الفسطاط حیث ضرب عنقه وصلب فی جمادى الآخرة ١٦٩ هـ .

بقى أن نقول ان دحیة العربی كان له أم ولد ، أی زوجة غیر عربية ، أسمها نعم . وقد عرفت نعم الهدف الكبیر الذی نذر زوجها نفسه لبلوغه مثلما عرفت خطته الیه . وأمنت نعم بأهداف زوجها وخططه . وصممت علی أن تقف معه . فلما جرد زوجها السیف لیشق الطریق الی هدفه نزلت الی أرض المعركة تتقدم الصفوف . وتثیر حماس الجنود ، وتقاتل قتالا صادقا . وأنتزعت نعم أعجاب المقاتلین من زملائها الرجال ، فقال لها أحدهم :

فلا ترجعی یانعم عن جیش ظالم

یقود جیوش الظالمین ویجنب

وكری بنا طردا علی كل سابع

الينا منايا الكافرين يقرب

كيوم لنا - لازلت أذكر يومنا -

بفاو ، ويوم فى بويط عصبب

ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه

على خيبة الفضل بن صالح تنعب

\* \* \*

### رَابَعًا : من العرب

١ : أرملة الراحل الأول :

لما تم للعربى الاستيلاء على مصر اقام لنفسه على أرضها مسكنا خاصا به . ولا أهمية لذلك الاسم غير العربى - الفسطاط - الذى أطلقه على مسكنه هذا الذى بناه ليمارس منه حياته الجديدة فى ذلك المجال الحيوى الجديد . لكن المهم أنه وهو يعلم أن الموت احدى العمليات الحيوية التى لا يستغنى عن أدائها الاحياء ، اتخذ لنفسه مسكنا آخرويا شرقى الفسطاط ، عند سفح المقطم ، لم يلبث الاستعمال اليومى حتى خلع عليه اسم القبيلة اليمنية - بنى قرافة - التى كانت تخطط هناك .

وليس بعيدا أن كل عربى كان يقدر أنه قد يكون أول من يحمل على الانتقال للأقامة فى تلك البقعة التى كان المقوقس ابدى استعدادا لشرائها من المسلمين بسبعين الف دينار (!!) "لأنهم - أى أهل الكتاب - يجدون صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة" . لم يطل الزمن فى كل حال حتى أختارت الحياة رجلا من قبيلة المعافر أسمه عامر لتفتتح به القرافة التى لم تتوقف منذ ذلك عن استقبال النزلاء من أهل مصر والقاهرة .

دوى الخبر بين القبائل واضعا حدا للتوقع القلق . وسجل القوم الحادثة التاريخية فى تعليق يجمع بين السخرية والتسليم قائلين :  
( عمريت ! ) .

يُبد أن امرأة ما كان للحادث لديها وقعٌ جد مختلف . فقد كان عامر هذا رجلها الذي يهيء لحياتها أن تدور دورة كاملة وتتجسم فيه معالم الوطن الأول ، ويسرى عنها اشواق الغربه وكأبتها ، وتلقى رجولته على وجودها ظل العز والأمان .

ولذا كان لها على الحادث تعليق جد مختلف كذلك : فلم يكن الأمر بالنسبة اليها امر أفتتاح مدافن العرب العامة . وإنما كان الامر أنثى تنظر في هلع الى ثلاثة أشباح رهيبة : الوحدة ، والغربة ، والذل ، تزحف عليها لتدمر حياتها بعد أن تحطم الحصن الذي كان يحوطها .

وقفت المرأة العربية التي يلزع الحزن قلبها ، وتحرك اللوعة لسانها ، تندب نفسها :

قامت بواكيه على قبره

من لى من بعدك يا عامر ؟

تركنتى فى الدار ذا غربه

قد ذل من ليس له ناصر

## ٢ - إمراة وثلاثة رجال

علقمة بن يزيد الغطيفى أحد الرجال الذى تعاونت سيوفهم على فتح مصر .

لم يكن رجلا عاديا تماما فقد كانت له وفادة ، أى أنه وفد على النبى ، وفى مصر عاش محاربا ممتازا .

أما عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، أخو عثمان بن عفاف من البرضاع ، فكان يتولى قيادة ميمنة جيش الفتح لعمر بن العاص . ولما تم الفتح استطاع أن يحقق لنفسه نجاحا جعل منه منافسا فعليا لعمر . فقد قاسمه إمرة مصر : هو على الصعيد وعمر على أسفل الأرض ( الدلتا ) . ثم لم يلبث حتى انفرد بحكم مصر كلها سنة ٢٥ هـ . ثم خاض معارك ضخمة مظفرة مع افريقية الرومانية سنة ٢٧ هـ ، ومع اساوذة النوبة سنة ٣١ هـ . وكانت الغنائم من اسباب نجاحه فى تكوين ثروة ضخمة لنفسه جلبت عليه حقد

. حاكدين .

جمع بنا الحديث الى علقمة .

علقمة اراد أن يتزوج . ويبدو أنه يحمل اعجابا خاصا بفتاة اسمها بسياسة فلم يتردد بل ذهب فخطبها الى ابيها حمزة بن ليشرح الذى لم يمانع .

لكن يبدو كذلك أن بسياسة كانت تتمتع بما يحيب فيها عظماء الرجال . فقد علم بها عبد الله بن سعد - السيد القرشى ، والأمير الغنى ، والقائد المظفر - فأرادها لنفسه . وكان هناك الضابط الصغير علقمة . لكن الأمر لم يتطلب أكثر من أن يكلمه عبد الله . فإذا به يتنازل عنها .

أما لماذا وكيف تنازل علقمة الفارس عن فتاته فمسألة تحتمل الاجابة عنها كل الفروض . لعله تنازل كرما ، أو رهبة ، أو يأسا . وبسياسة ما موقفها ؟ لاشيء طبعاً فهذه امور ينفرد - كان - بتقريرها الرجال .

ومرت الأيام . وأراد البيزنطيون أن يلقوا بكل قوتهم فى محاولة يائسة للقضاء على النظام الجديد فى مصر وأستعادتتها من العرب . وقدموا الى المياه الاقليمية فى اسطول ضخيم خاف المسلمون لما سمعوا أنه يتكون من الف مركب ، فقد كانوا لا يملكون سوى مائتى مركب أو نحوها . وقسم عبد الله قواته نصفين : نصف سيره على البر ، ونصف حملة معه فى البحر . ولما كانت التقاليد العسكرية حينذاك تسمح للجنود باصطحاب نسائهم معهم فى المراكب فى أثناء المعارك البحرية ، فقد كانت بسياسة فى سفينة عبد الله فى ذلك اليوم . على أنه كان هناك شخص آخر على نفس المركب : علقمة .

دارت معركة غير متكافئة بين قوم ذوى خبرة عريقة بالقتال فى البحر ، وآخرين مازالت رمال الصحراء عالقة بثيابهم ، وأقتتلوا أول الأمر بالنبل أو النشاب . فلما لم يؤد هذا الى شىء ذى بال تبادلوا الرمي بالحجارة الضخمة . لكن هذا لم يحسم الموقف كذلك

فربطوا المراكب بعضها ببعض بالسلاسل وجعلوا منها ارضا وقفوا  
يقتتلون فوقها بالسيوف ، وقرن مركب عبد الله بمركب من مراكب  
العدو ، فكاد مركب العدو يجتر مركب القائد العربى اليهم ،  
وتعرضت سفينة عبدالله لخطر لاشك فيه . وهنا قام علقمة الذى  
يعلم أن هناك عينا ترقب ما يحدث فضرب السلسلة بسيفه ضربة  
محارب بطل فقطعها .

وأنتهت معركة "ذات الصوارى" التى مايزال اسمها العربى  
يعبر عن دهشة الجنود العرب البالغة ازاء ذلك العدد من صوارى  
مراكب الروم ، والتى تكافىء معركة اليرموك من حيث الأهمية ،  
والتي فيها دمر الاسطول البيزنطى تماما .

التفت القائد المنتصر الى زوجته بسياسة وسألها : من رأيت  
أشد قتالا ؟ أجابت المرأة العربية فى بساطة ونزاهة وشجاعة :  
علقمة صاحب السلسلة .

على أن لهذه المعركة وجها آخر من الأهمية لايبنى به  
المؤرخون . ففى أثنائها وبعدها مباشرة بدأت الحركة المضادة  
لعثمان فى مصر ، هذه الحركة التى حتمت على عبد الله بن سعد  
مغادرة البلاد متوجها الى العاصمة لمقابلة الخليفة سنة ٣٥ هـ .  
ولم يعد عبد الله الى مصر بعد ذلك مطلقا . بل أنه لم يلبث حتى  
مات فى السنة التالية . وأصبحت بسياسة أرملة .

وكان هناك علقمة ، وكان مايزال على عهده . فذهب فخطبها من  
جديد . ولم يتدخل منافس فى هذه المرة فتم الزواج .  
سار علقمة فى الاتجاه الأموى وأصبح من رجال الدولة .  
وتقدم فى المناصب العسكرية حتى أسندت اليه قيادة حامية مدينة  
الاسكندرية . التى تتكون من ستة عشر ألف جندى .

ومرت الايام ، وتقدمت السن بعلقمة ، ولم يلبث حتى ذهب الى  
حيث سبقه عبد الله ، وعادت بسياسة الشابة فترملت من جديد .  
لكن هذا الشئ الذى يجعل بسياسة موضع تفضيل الرجال عاد

فأنقذها من وخشة الترمل . ولئن كانت بسييسة قد أستهوت أول الأمر سيدا اميرا . ثم جذبت اليها فى المرة الثانية قائدا كبيرا ، أنها اليوم ماتزال قادرة على أن تعجب زعيما خطيرا .

كريب بن أبرهة الاصبهى سيد من سادات حمير ، وشريف من أشراف مصر ، ونجم لامع من نجوم طبقة العرب الارستقراطية . كان يسير فى طرق القسطنطين وأن تحت ركابه خمسمائة رجل من حمير . وولى الأسكندرية لعبد العزيز بن مروان . ذلك هو الزوج الثالث لبسييسة .

عاشت بسييسة مع زوجها الجديد ما شاء الله لها ان تعيش حتى كانت سنة ٦٤ هـ فتمرد الخوارج المصريون متحالفين مع اتباع عبد الله بن الزبير ضد الحكم الاموى فى حركة انتهت بسقوط مصر فى ايديهم . غير أنهم لم يلبثوا حتى اضطروا بعد ستة أشهر ، وبعد معارك عنيفة ضد قوات الدولة تخللتها مساع حميدة لأشراف مصر المواليين للامويين ومن بينهم كريب بن أبرهة ، الى تسليم مصر الى مروان بن الحكم الذى دخلها دخول الفاتحين . وكان أول ما فعله مروان - شأن كل قائد منتصر - أن قضى على كل خصومه الخطرين وفى مقدمتهم سيد قبيلة لخم وشيخها ، الزعيم العلوى العنيف ، الاكدر بن حمام اللخمى .

وكان قتل الاكدر فى ذاته تراجيديا كاملة ليس هنا مقام تفصيلها . ولقد كان فى مقدور كريب - وهو السيد الزعيم ، الموالى للامويين - أن ينقذ حياة زميله . لقد خف اليه قوم الأكدر وسألوه التدخل لأنقاذ زعيمهم . ولكنه كان يؤكد التخلص من ذلك الشيخ الثورى ، فاعتذر عن عدم المضى معهم قائلا : "حتى افرغ من دفن هذه الجنازة" . ولم تكن هذه سوى جنازة زوجته بسييسة التى اتفق ان انتهت حياتها فى ذلك اليوم العصيب .

وداح كريب يجهز زوجته لرحلتها الأخيرة . وأبطأ فى ذلك ما وسعه الابطاء ، فلما فرغ كان الاكدر تم قتله ، وأسدل الستار على فصل عاصف من تاريخ مصر ليتبعه فصل طويل من الهدوء



والاستقرار النسبيين .

### ٣ - إبنة الفارس :

لما دخل العربي مضنر كان معه زميل يشاركه صفات الإصالة العربية . ذلك هو : الحصان . ومثلما لمع فرسان وابطال لمعت جياد . فالجيش الذى حصره الروم عند كوم شريك فى اثناء عمليات الفتح مدين بخلاصه للحصان الاشقر - أشقر صدف - الذى " لم يكن يجارى سرعة " فلم يستطع الروم ادراكه وهو يعدو بصاحبه الى مقر القيادة طلبا للنجدة .

وهناك " عجلى " - فرس قبيلة عك - التى ابلت أحسن بلاء فى معارك الفتح ايضا ، والتى استحققت ان يغنى الشاعر لها بقوله :

سبق	الاقوام	عجلى
سبقتهم	وهى	حبلى

لما ثار المصريون على الخلافة الاموية سنة ٦٤ - ٦٥ هـ لعب " الخطار " احد خيل مصر المشهورة ، دورا فى هذه الثورة التى " أخفقت وخضعت مصر بعدها لحكم عبد العزيز بن مروان طوال واحد وعشرين عاما .

وعبد العزيز امير عربى يعجبه الجواد الاصيل فلما رأى الخطار اشتهى ان يقتنيه . لكن صاحبه ليبيد بن عقبة السومى رفض أن يتنازل عنه . وكيف يتنازل فارس عن فرسه ولو لأمير ؟ كبر على الاميرذى السلطان المطلق ان يستعصى جندى على أراذته ، فسيره فى الجيش المصرى الذهاب لغزو افريقية عقابا أو انتقاما ، فى الاصح ، يخفى وراء ظاهره المشروع الحقد الذى تثيره الشهوات الشخصية .

صحب ليبيد زميله الوفى ، الخطار ، ومضى . وفى معارك افريقية تحقق الاحتمال القوى الذى كان الأمير يتوقعه ، ونجح انتقامه فقد قتل ليبيد .

مات الفارس . وبقي الفرس الممتاز ولكنه ضم الى غيره من الخيل يقاسمها حياتها اليومية كأي حصان عادى . ومع الأيام استترت مزايا الجواد الأصل خلف معرفة مهمة وذيل طويل . تكدست الخيل التي فقدت فرسانها عند موسى بن نصير ، فاتح المغرب ، وأراد أن يتخفف منها فانتقى مجموعة فيها الخطار وأهداها الى أميره عبد العزيز .

سر الأمير ايما سرور فقد أتت خطته كل ثمارها . تخلص من الفارس المعارض وآل اليه جواده . لكن هناك مشكلة : كيف يميزون الخطار بين تلك الخيل كلها ؟ حاولوا كثيرا . ولكنهم لم يجدوا من يعرفه بعد أن غير الاهمال مظهره ، فلم يكن بد من اللجوء الى الحل الأخير ، الى ابنة ليبيد .

دخلت ابنة الفارس الحظيرة ، وطلبت أن تترك وحدها ، ومضت تفحص كل حصان وسرعان ما أهتدت الفتاة العربية الى حصان أبيها الذي طالما ملأت عينها بمنظره النبيل وعلى صهوته أبوها الفارس الأشم . وجاش صدرها بعاطفة هي مزيج من الحب والانفة والرغبة فى الثأر ، وصممت على أن تحرم صهوته على كل أنسان بعد أبيها . فتقدمت اليه وهى تقسم : "والله لا يركبك احد بعد أبى سويا" . ومدت يدها فقطعت اذنيه ، وهلبت - أى نتفت - ذنبه . شوهته لكيلا يصلح للركوب . وأى فارس يرضى امتطاء حصان أصلم ، ازعر ؟ استراحت الفتاة وقد احست أنها حافظت على ارادة أبيها الذى لقي حتفه فى سبيلها فدفعت الحصان اليهم وهى تقول : "هو هذا . خذوه لبارك الله لكم فيه" . ولم يرفضه عبد العزيز ، فهو وأن كان لن يستمتع بركوبه يعرف كيف يستفيد منه ، فقد اتخذه للفحلة أى للانتاج .

كم كان عبد العزيز حصيفا وخبيرا فقد انجب الخطار "الزائد" ، وأنجب الزائد "الفرقد" فهو ابو الخيول الفرقدية . ولم يعرف الفرقد فى شىء من خيل مصر الا جاء سابقا .

#### ٤ - أسماء بنت أبي بكر

ليست أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين . ولكنها سميتها أسماء بنت أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان . وقد استطاعت أسماء المصرية ان تنال من الذكر في تاريخ مصر الخاص ما نالت أسماء الحجازية في تاريخ الاسلام العام . لما كتب عثمان المصحف الرسمي الموحد ارسل نسخا منه الى المدن الإسلامية الرئيسية ليتخذها المسلمون هناك مصاحف أئمة يرجعون اليها وينسخون منها . وأغفل الخليفة مصر فلم يرسل اليها مصحفا . فلما كان عبد العزيز بن مروان سد ذلك النقص وكتب للمصريين مصحفا اماما عام ( ٧٦ هـ ) . لكن من الحق أن هذا المصحف كان ملكا خاصا لعبد العزيز بالرغم من أنه وضع نظاما ثابتا لأستعماله استعمالا عاما في أضيق الحدود . فكان يحتفظ به في داره طول الأسبوع . حتى اذا كان صباح يوم الجمعة حملوه الى المسجد الجامع حيث يبدأ صاحب القصص عمله بالقراءة فيه ، ثم يمضى يقص . فاذا فرغ اعيد المصحف الى موضعه من دار عبد العزيز .

ولما توفي عبد العزيز بعد عشر سنوات من ذلك ( ٨٦ هـ ) عرض مصحفه هذا للبيع في ميراثه . وكأنما استنكف ابنه ابو بكر أن يقع مصحف ابيه في حوزة رجل آخر ، فدفع الف دينار مقابل الاحتفاظ بملكيته . ولم يزل يجرى على نفس النظام الذي استنبه ابوه لأستعمال المصحف طوال عشر سنوات اخر انتهت بوفاة سنة ( ٩٦ هـ ) .

لقد أصبح المصحف جزءا من تاريخ الأسرة وتراثها اللذين لم تكن أسماء بنت أبي بكر اقل حرصا عليهما من ابيها . فعادت وأشترت مصحف جدها ، من ميراث ابيها ، بسبعمئة دينار . ثم لم تلبث حتى أصبح لها معه صنيع هام ، فقد خطت به خطوة جديدة وهامة ، عبر عنها المؤرخون بقولهم أنها "امكنت منه الناس ، وشهرته" . ولعل اقرب التفسير لهذا هو أنها ابقت المصحف في المسجد زمنا اطول ، وسمحت للمختصين ، كالعلماء والقراء

بالقراءة فيه والرجوع اليه والنسخ منه . وهكذا لم يعد المصحف وقفا على الاستعمال . الرسمي الذي يياشره صاحب القصص . وكافأت الحياة - الحياة اليومية ممثلة في الناس العاديين - اسماء . فنسى هؤلاء الناس صاحب المصحف الأول - عبد العزيز - ونسبوه الى حفيدته اسماء . وجاء المؤرخون من بعد فتبعوا الركب ، وتحدثوا عنه تحت اسم "مصحف اسماء" ، تماما كالقارة الامريكية التي كشفها كولمبس ولكنها حملت اسم امريجو .

### ٥- زوجة القاضي

وفد من حضر موت الى مصر - مع الفتح وبعده - عدد استطاع بالرغم من قلته النسبية أن يكون له شأن . واستطاع هؤلاء الحضارمة المهرة المجدون الأمناء أن ينالوا ثقة الخليفة العملي : معاوية ، الذي نصح امير مصر ، مسلمة بن مخلد ، بألا يختار موظفين من غير الأزد أو الحضارمة . "فأنهم أهل الأمانة" . ويكفي دليلا على تفوق هؤلاء الناس أنهم استطاعوا أن يستحوذوا فيما يشبه الاحتكار على مرفق من أخطر مرافق الحياة في المجتمع المصري بما يمس حياة الناس اليومية مسا مباشرا ، ويتحكم فيها تحكما فعليا . ففي حوالي قرن ونصف قرن ( ٨٤ - ٢٤٤ هـ ) ولي قضاء مصر تسعة من رجال حزموت أى بمعدل قاض واحد كل ثمانية عشر عاما . هؤلاء عدا من ولي القضاء منهم في الأندلس وبرقة وفلسطين وحمص ودمشق . وليس بمستغرب أن يلفت هذا الشاعر ليقول :

ياحزموت هنيئا ما خصصت به

من الحكومة بين العجم والعرب

فى الجاهلية والأسلام يعرفه

أهل الرواية والتفتيش والطلب

كان توبة بن نمر احد هؤلاء الرجال الذين وكلت اليهم الدولة

الحكم بين الناس من سنة ( ١١٥ هـ ) الى ان عزله الموت سنة ( ١٢٠ ) هـ .

وتوبة هذا هو المؤسس الفعلى لما نعرفه اليوم باسم وزارة الأوقاف . فقد كانت الأحباس - اى الأوقاف - جمع حبس بضمين . وهو كل شىء وقفه صاحبه من نخل أو كرم أو غيرها يحبس اصله وتسبل غلته فى ايدى اهلها وفى أيدى أوصيائهم . فلما ولى توبة القضاء قال : " ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا الى الفقراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من الالتواء " والتوارث" . وأدخلها الى سلطان الدولة ، وجعلها مرفقا حكوميا . " فلم يمت حتى صار الاحباس ديوانا عظيما " .

وقد حفظت لنا الرواية امثلة اخرى للمواقف الانسانية لتوبة . لعل من أهمها أنه كان لا يملك شيئا الا وهبه ووصل به أخوانه وأفضل به عليهم . ودافع توبة عن تبذيره هذا الذى يرجع الى نزعة زهدية فى قوله :

نشبى وما جمعت من صفد  
وحويت من مال ومن لبـد  
هم تقاذفت الهموم بها  
فنزعت من بلد الى بلد  
ياربح من حسمت قناعته  
سبب المطامع من غد وغد  
من لم يكن بالله متهما  
لم يمس محتاجا الى احد

أنه أديب ايضا ، والأدب اريحيه . وكان توبة ، القاضى الخبير بالطبيعة العربية ، لا يقبل شهادة مُضرى على يمانى ولا يمانى على مُضرى . وبالرغم من هذا كان - وهو اليمانى - له زوجة مُضرية من أشجع من سعد من قيس . ليس هذا فحسب بل أن الذى اسند القضاء الى توبة هو أمير مصر القيسى : الوليد بن رفاعه . وأكثر

من هذا أن الذي رشحه لدى الأمير ، وقام بأمره حتى ولى هو عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر ، ومولى قيس ، وصاحب المشروع الذى أدى إلى تهجير عدد ضخم من قبيلة قيس إلى مصر .

لا شك فى أن هذا الرجل الكبير كان قد سما فوق العصبية . وتجاوز افقها المحدود . ولا شك أيضا فى أن أمير مصر شعر بالارتياح الشديد عندما وفق اليه ، ففيه يتحقق ما أمر به الخليفة هشام عندما كتب اليه بعد أن سخط على القاضى السابق لتوبة : "أصرف يحيى عما يتولاه مذموما مدحورا ، وتخیر لقضاء جندك رجلا عفيفا ، ورعا تقيا ، سليما من العيوب ، لاتأخذه فى الله لومه لائم" .

ذهب رسول الأمير الى توبة يقلده ولاية القضاء فوجده على سريره ومعه امرأته عفيرة . لم تنصرف عفيرة ، بل لم تحتجب ، فقد كانت امرأة برزة ، أى متجاهرة كهلة تبرز للقوم يجلسون اليها ويتحدثون وهى عفيفة .

فطنت المرأة الذكية لما ينطوى عليه هذا الصنيع من تقدير لزوجها وأعتراف بنزاهته ، وأطمئنان الى عدالته . فقد كان الأمير - فى الأغلب الأعم - يحرص على أن يكون كبار الموظفين - صاحب الخراج ، صاحب الشرطة ، القاضى ، وغيرهم - من نفس قبيلته ضمانا لولائهم فقد كان الموظفون حينذاك يمارسون الشئون العامة على أساس من الميول الشخصية ، والنزعات القبلية . لذلك لم تتمالك عفيرة نفسها من أن تلتفت الى زوجها وتهتف به فى فرح يمتزج بالأعجاب والفخر والاعتراف بالحق :

- أما والله ياتوبة ما حباك ابن رفاعة بهذه الولاية ، ولو أنه وجد فى قيس كلها من يسد مسدك أو يستضلع بهذا الامر لأثره عليك ، وقدمه وأجرك .

ولما كانت عفيرة سيدة مجتمع فقد خشى توبة ان يحاول الناس استغلال صلاتهم الاجتماعية بها فى الافادة من منصبه الجديد



الخطير . فدعاها منذ اللحظة الأولى وقال لها :

- يا أم محمد : أى صاحب كنت لك ؟

قالت : خير صاحب وأكرمه .

قال : فاسمعى : لاتعرضن لى فى شىء من القضاء ، ولا تذكرنى بخصم ، ولا تسألنى عن حكومة . فإن فعلت شيئاً من هذا فأنت طالق . فأما أن تقيمى مكرمة ، وأما أن تذهبى ذميمة . لم تكن عفيرة أقل من زوجها الحازم النزيه حرصاً على العدالة فأثرت - وهى الزوجة والأم وسيدة البيت - أن تضع الصالح العام قبل عواطفها الشخصية . فانتقلت عن زوجها ، فلم تكن تأتية الا فى الشهر والشهرين . وضربت المرأة القوية على نفسها حرماناً اختيارياً من بيتها وزوجها طوال اربع سنين وشهر انتقل بعدها توبة الى جوار القاضى الأكبر صاحب الدينونة .

#### ٦ - زوجة الخارجى :

فى الموضوع السابق « رجال متمردون » أشرنا إلى معونة زوجة الخارجى وهيب الذى حاول اغتيال أمير مصر الوليد بن رفاعه الفهمى بسبب يتعلق ببناء الكنائس فى مصر . ورأينا كيف عاقبه الأمير بالقتل ، وكيف تحرك القراء ، زملاء وهيب ، ضد الدولة فى محاولة للثأر لزميلهم . ونضيف هنا أن « معونة » استبدت بها الحزن على مصرع زوجها فحلفت رأسها حداداً عليه ، واستبدت بها الغيظ فكانت تطوف ليلاً على منازل القراء تذكرهم مصرع وهيب ، وتحرضهم على الانتقام له .

على الرغم من اندحار القراء أمام قوات الدولة وفشل محاولتهم مثلما فشلت محاولة زميلهم وهيب من قبل ... نقول على الرغم من هذا فإن سلوك « معونة » هذه يعدُّ نموذجاً كاملاً لموقف المرأة العربية فى مصر التى كانت ماتزال ، على الرغم من مضى أكثر من قرن على ظهور الاسلام وسيادته ، تدين بفكرة الانتقام الشخصى من القاتل غير منصاعة للتطوير الهام الذى جاء به الاسلام حين

جعل الثأر لدم القتل عملاً من اختصاص الدولة ، وواحدة من مسؤوليتها الرئيسية .

### ٧ - الزوجة العذراء

١٣ش ٢ كانت السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية مشحونة بالاضطرابات والثورات نتيجة لجهود العلويين والعباسيين الذين كانوا يثيرون السخط على الأمويين في كل مكان . ويعملون على تقويض دولتهم . وكانت مصر مسرحاً لفصول عنيفة من هذه الاضطرابات . لكن كانت آخر حركة سبقت السقوط النهائي للأمويين وقيام الدولة العباسية هي تلك الحركة التي اطلق عليها اسم : "التسويد" حيث كان الافراد يجهرون بانضمامهم الى الدعوة العباسية ويلبسون السواد علامة على هذا الانضمام . وأستعلت هذه الحركة في مصر عام ١٣٢هـ . في الحوف الشرقي ، والاسكندرية ، والصعيد ، وأسوان . وكان الذي سود بالصعيد هو عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني . وقد كافأه العباسيون بعد أن فتحوا مصر فأقطعوه قطائع في الميمن وأهناس ، وولوه كبريات المناصب الحكومية ، وأصبح من وجوه الدولة ورجالاتها ، فضلاً عن نشاطه العلمي القديم .

وكان هذا كله ، بل بعضه ، يكفي ليجعل من عبد الأعلى حلم كل سيدات الطبقة الارستقراطية . لكن عبد الأعلى كان يريد واحدة بعينها : أم شراحيل الكلالية . ولما لم يكن ابوهاً على قيد الحياة فقد خطبها عبد الأعلى الى عمها . ولم يسع العم ، الذي لم يجد مغمزا في عبد الأعلى الا أن يوافق ، ويعقد نكاحه على ابنة اخيه . ولا شك في أن عبد الأعلى وضع مكانته الاجتماعية ومكانة خطيبته كذلك موضع التقدير حين فرض لها من الصداق الف دينار . لكن يبدو أن قد كان هناك خلاف من نوع ما بين شيوخ القبيلة ، ولعله كان نزاعاً أو تنافساً على أم شراحيل ذاتها ، فأن بعض اولياء أم شراحيل انكروا هذا الزواج ، ولم يوافقوا العم على تصرفه زاعمين

ان عبد الأعلى غير كفاء لابنتهم .

وكان فى مصر حينذاك ( ١٤٤ - ١٥٢ هـ ) قاض من طراز فريد ، هو ابو خزيمه الرعينى ، كان يكسب قوته - قبل القضاء - من عمل الارسان أى حبال الليف . وكان نزيها متحرجا ، بلغ من تحرجه أنه كان اذا غسل ثيابه - وهو قاض - أو شهد جنازة ، أو أشتغل بشغل لم يأخذ من مرتبه بقدر ما أشتغل . وقال : انما أنا عامل للمسلمين . فاذا أشتغلت بشىء غير عملهم فلا يحل لى أخذ مالهم .

الى هذا القاضى ذهب أولياء أم شراحيل يطلبون اليه فسخ زواجها من عبد الأعلى ولما كان الزواج صحيحا تماما ، ولا سبيل الى الطعن فيه فقد اجابهم ابو خزيمه بقوله : " ما أحل ما حرم الله ، ولا أحرم ما أحل الله . اذا زوجها ولى فالنكاح ماض " لم ينهزم أولياء ام شراحيل المعارضون : فلتن كان القضاء الصريح الورع قد خذلهم فأن السياسة المرنة ذات الألاعيب لن تخذلهم . وذهبوا الى والى مصر ، يزيد بن حاتم المشهور بالسخاء . وعرضوا عليه الامر ، فأقر وجهة نظرهم ، وحكم بعدم كفاءة عبد الأعلى لابنتهم ، وأرسل الى أبى خزيمه يأمره بفسخ النكاح . لم يكن ابو خزيمه بالقاضى الذى يخاف سطوة الحكام ويعمل على ارضائهم ولو على حساب العدالة . فامتنع عن تنفيذ الامر . لكن الوالى لم يكن ينتظر سوى هذا الرفض الذى كان يتوقعه من القاضى النزيه . فألقى السهم الذى كان يدخره ومارس سلطته كأمر . وتولى بنفسه التفريق بين عبد الأعلى وعروسه التى لم يكن قد دخل بها بعد .

لم يعد أمام ام شراحيل . ولا عمها ولا زوجها ما يفعلون سوى ابيات من الشعر . لعلها جزء من قصيدة كبيرة سجل فيها عبد الأعلى الزوج المغلوب على أمره - وكان شاعرا كذلك - ما حدث له . ونقد مجتمعه . وانتقم لنفسه ، وفرج عن صدره . قال :

وأعلنت الفواحش فى البوادي  
وصار الناس اعوان المريب  
إذا ما عبتهم عابوا مقالسى  
لما فى القوم من تلك العيوب  
وودوا لو كفرنا فاستويننا  
وصار الناس كالشئ المشبوب  
وكنّا نستطب إذا مرضينا

#### ٨ - الزوجة المشاكسة

قبيلة المعافر قبيلة يمنية قوية كبيرة . يتسم رجالها بشدة البأس والمهارة فى القتال . اشتركت فى فتح مصر وظلت طوال القرون الثلاثة التالية تلعب أعنف الأدوار على مسرح الحياة فيها .  
وحدث أن تزوج أبو الكروس ، أحد أفراد قبيلة كلب ، التى لم يكن لها بمصر ما للمعافر من أهمية وسطوة ، سيدة معافرية . ووقع بين أبى الكروس وزوجته يوما ما يقع بين كل زوجين من خلاف . لكن الزوجة المعافرية التى تحمل فى دماغها عنف قبيلتها وعجرفتها تطاولت على زوجها الكلبى ، ولعل الزوج وجدها فرصة سانحة للتخلص من هذه الزوجة المتعالية فطلقها . لكن لم تكن المعافرية لتسلم فى سهولة . فادعت انها لم تقبض صداقها وأقامت دعوى ضده تطالب به . ونظر الدعوى قاضى مصر المفضل بن فضالة ( ١٦٨ - ١٦٩ هـ ) . عجب أبو الكروس لهذه الزوجة المشاكسة . المولعة بالخصام ، الباحثة عن المتاعب ، التى تستحل كل الوسائل لمكايده والانتقام منه . فهتف فى حضرة القاضى :

الا طرقتنا سحرة أم شاكر :  
بكارا ، وهل يؤذيك الا المباكر ؟  
وقد أخذت مهرا لما كان عندها .  
وهذا شهودى حمير والمعافر

وأحسَّ القاضي الفطن صدق الزوج المعذب . فقال له :  
يا أبا الكروس : ان شهد لك بالبراءة حكمنا لك . وان شهد عليك  
فعلينا الوفاء عنك .

#### ٩ - السيدة نفيسة :

بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب . دخلت  
مصر في أخريات القرن الثاني للهجرة مع زوجها اسحق بن جعفر  
الصادق . ولم تلبث حتى أصبحت من ابرز شخصيات المجتمع  
وأحبها الى قلوب المصريين لما اجتمع لها من وجوه التفوق  
واسباب الفضل . فقد جمعت بين الأصل الزكي ، والتفوق المادي ،  
والامتياز العقلي ، والسمو الروحي . وأصبح بيتها كعبة يحج اليها  
الزمنى ، والمرضى ، وأصحاب الحاجة الطامعون في احسانها  
المبذول ، وطلاب المعرفة الراغبون في علمها ، وأصحاب  
المشكلات المستعصية المؤمنون بكراماتها . وهكذا ظلت السيدة  
نفيسة مالا يقل عن عشر سنوات تبذل الصدقات ، وتفسر القرآن ،  
وتروى الحديث . كما ابرأت المقعد ، وأطلقت الاسير ، وأجرت  
النيل .

وشاءت الظروف أن يتعاصر الامام الشافعى والسيدة نفيسة في  
مصر حوالى سبع سنوات . وكان طبيعيا جدا أن تتوثق بينهما  
الصلة . فكلاهما قرشى ، وكلاهما من أهل العلم ، وكلاهما من أهل  
العبادة والتقوى . لكن الشافعى كان فقيرا بقدر ما كانت السيدة  
نفيسة غنية . ولم تكن السنوات التى ختمت بها حياته في مصر  
سوى ضائقة مالية موصولة الحلقات كانت السيدة نفيسة تحاول  
التخفيف منها بعونها الموصول . وظل الشافعى يتردد عليها ،  
ويصلى بها التراويح في مسجدتها ، ويطلب اليها أن تدعو له ،  
ويسمع عنها الحديث . ولما توفى سنة ٢٠٤ هـ تم بينهما اللقاء  
الأخير لقاء الوداع عندما أدخلوا جنازته اليها ، فصلت عليه في  
دارها .

وبعد ذلك بأربع سنوات انتهت هذه الحياة الكريمة التى تفيض  
هدى وخيرا ، وطهرا وعلما . ورأى زوجها واجبا عليه أن يعود  
بالجثمان الكريم الى أرضه الأولى بالمدينة المنورة . لكن السيدة  
نفيسة كانت قد أصبحت جزءا أصيلا من الحياة المصرية ذاتها ،  
ومعلما شامخا من معالمها الروحية ، وجانبا كريما من تراثها العريق  
ـ وأدرك المصريون أن نقل جثمانها من بلادهم محو لفصل من  
تاريخهم ، وهدم لجانب من حياتهم ، وتهاون عن مجد من  
أمجادهم . واستجاب زوجها لرجاء المصريين ، فأودع جثمانها  
ثرى مصر الذى طالما ضم رفات الخالدين .

\* \* \*

أما بعد

فأرجو أن يكون فى هذه الصور ما يكفى لتكوين فكرة ما عن  
المرأة كما عاشت فى مصر فى فجر الاسلام ( القرون الثلاثة  
الأولى للهجرة ) : وإذا نحن أضفنا الى هذه الصور المعلومات  
المتناثرة التى تقدمها المصادر المختلفة استطعنا أن نطمئن الى  
أن المرأة المصرية حينذاك كانت تنزل الى الحياة العامة ، وتمارس  
حقوقها المدنية فهى تشتري وتبيع ، وتؤجر وتحبس ، وتورث وترث  
وتقاضى وتتصدق ، وتعق ، وتمشى فى الاسواق ، وتدخل  
الحمامات ، وتشهد القتال ، وتندب وتغنى ، وتتعبد وتتفقه .  
وعقود الزواج التى حفظتها أوراق البردى تظهر أن المرأة كانت  
تتقاضى صداقا اقله دينار ، وفى كثير من الاحيان يدفع نصف  
الصداق حالا . وكان الزوج يعطى زوجته سندا بما تأخر لها من  
الصداق يطلق عليه اسم ( ذكر حق ) أى كمبيالة . وكان ينص فى  
عقد الزواج على شروط المعاشرة الزوجية ، ومنها : تقوى الله ،  
حسن الصحبة والمعاشرة وفقا لأوامر الله وسنة النبى . ولم يكن  
نادرا أن يشترط الزوج على نفسه أن كل امرأة يتزوجها يكون  
لزوجته الحق فى تطليقها ، وكل جارية يملكها يكون لزوجته الحق فى



بيعها أو أعتاقها . ولا يمنعها من أهلها ولا يمنع أهلها منها .  
وتعبر كلمات الترحم ، وجمل الدعاء المنقوش على شواهد قبور  
النساء عن عاطفة الاعزاز والمودة التي يحملها الرجال نحو  
نسائهم .

وفى الأسماء التي كانت تطلق على النساء مجال للتأمل .  
فمثلا يفضل في أسماء الرجال تلك التي تعبر عن العبودية لله ،  
صيغت الأسماء النسائية لتعبر عن المعنى نفسه فقليل :  
أمة المؤمن ، أمة الرحمن ، أمة القادر ، أمة الله ، أمة العزيز ،  
أمة السلام ، أمة الرحيم .

وتعكس الأسماء النسائية تعلق المرأة الفطري بالأمومة فنجد :  
أم يحيى ، أم سلمة ، أم محمد ، أم كلثوم ، أم القاسم ، أم  
سعيد ، أم ابراهيم ، أم جرير .

وتعكس أسماء أخرى التعلق بالجزيرة العربية ومعالمها مثل :  
طائفية ، مكية ، قرشية ، عرفة ، هاشمية ، حرمية .  
وهناك أسماء تنم عن الذوق السليم والتأنق مثل :  
تسنيم ، حسناء ، مؤنسة ، حوراء ، مرام ، سادة ، ليلاء ،  
الف . وقد يلفت نظرنا تلك الأسماء النسوية التي أصبحت في  
أيامنا خاصة بالرجال مثل :

زيادة ، أنيس ، عرفة ، شهریار ، جمعة ، غزال .  
وأيا كان الأمر فهناك حقيقة واضحة نخرج بها من هذا كله ، تلك  
هي أن المرأة قد ظلت في تلك الحقبة من تاريخ مصر - مثلها في  
غيرها من الحقب - ظاهرة على مسرح الحياة تلعب دورها ، وتؤدي  
رسالتها .

## أسوان مدينة السوق

كان قيام السد العملاق الذى وضع قدمه فى اقصى الجنوب من بلادنا إيذاناً ببداية مرحلة جديدة فى حياتها بعامه وفى حياة اسوان بخاصة ، هذه المدينة التى لم تزل تطالع الدنيا منذ الاف السنين بصفحة ثابتة كتب اولى كلماتها المصرى القديم منذ ان كشف مزايا صخور الجبل الشرقى المواجه لجزيرة الفنتين فراح يقطع الجرانيت لينحت منه ابداع تماثيله واخذ مبانيه .

هناك نشأت على الشاطئ الشرقى قرية متواضعة تستمد اهميتها من عاصمة مقاطعة الحدود مدينة "يب" القائمة فى جزيرة الفنتين . ولم تزل هذه القرية تنمو على حساب "يب" حتى امتصت حيويتها وسلبتها اهميتها وحلت محلها . ولما كان التجار القادمون من الشمال ، والغرب "الواحات" ، والجنوب "بلاد كوش" قد وجدوا فى المدينة الناشئة مكانا مناسباً يتبادلون فيه سلعهم فقد أطلقوا عليها الكلمة الفرعونية سوان Swan أى : السوق .

وفى القرن السادس قبل الميلاد على الأكثر نزحت الى اسوان جالية يهودية حيث عاشت وأقامت معبداً للاله يهوه بها . ولم تكن اسوان غريبة على هؤلاء اليهود فقد ذكرها نبيهم حزقيال باسم سفنه seveneh وهو يهدد مصر بالخراب فى نبوءاته العنيفة التى يزدحم بها السفر الذى يحمل اسمه من اسفار التوراه :

"لذلك هانذا عليك وعلى أنهارك ، وأجعل أرض مصر خربة مقفرة من مجدل الى اسوان الى تخم كوش" ( اصحاح ٢٩ : ١٠ ) . "هكذا قال الرب : ويسقط عاضدو مصر وتنحط كبرياء عزتها من مجدل الى اسوان يسقطون فيها بالسيف يقول السيد الرب" ( اصحاح ٢ : ٦-٣ ) .

ولما دخل اليونانيون مصر حرفوا الاسم قليلا فجعلوه سيين syene وأولى الرومان سيين عناية خاصة فجعلوا منها حصنا منيعا يستطيع أن يصمد لغارات قبائل الصحراء والنوبة .

ولم تكد المسيحية تدخل مصر حتى اخذت طريقها الى أسوان التى أصبحت كرسيًا لاسقفية . ولما بدأت الدولة تضطهد المسيحيين لم يجد المؤمنون ملاذا يفرون اليه بعقيدتهم أفضل من أسوان فأنشئوا بجوارها اديرة ماتزال اطلالها شاخصه .

ولما فتح العرب مصر استهوت اسوان عددا من القبائل اليمنية والحجازية وأفرادا من قریش بخاصة ونطق هؤلاء العرب اسم المدينة كما ينطقه الاهالى بعد أن اضافوا اليه همزة فى أوله لأنهم لا يستحبون البدء بالساکن ، وليخلعوا على الاسم - ربما - طابعا عربيا أغرى المؤلفين الاسلاميين فيما بعد بأن يطبقوا عليه عادتهم السيئة الغربية فى ارجاع اسم أى مدينة الى أصل عربى قح ، فزعموا أن أسوان من قولهم ، أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن ، ورجل اسيان وأسوان أى حزين ! ! وأن ظل بعضهم أمينا للاصل فكتبها سوان دون أن يحاول تعليلها .

ولحظ المؤرخون والجغرافيون الاسلاميون أن أسوان تتمتع بتربة خصبة تنمو بها الحنطة وغيرها من الحبوب والفواكه والخضروات والبقول ولكنها اصلح ما تكون لنمو النخل حتى أن النواة تودع الارض فتنبت نخلة ويؤكل ثمرها - فيما زعموا - بعد سنتين ، متفوقة فى ذلك على تربة البصرة والكوفة وغيرها من أرض النخل : ولذلك كثر النخل فى اسوان وتنوعت اصناف البلح تنوعا مدهشا لامثيل له فى العراق ولا فى الحجاز ، حتى إن هارون الرشيد لما أمر ان تحمل اليه انواع التمور التى تنبت فى اسوان ، من كل صنف ثمرة واحدة ، جمعت له - فيما زعموا ايضا - ويبة . والى جانب الكثرة والتنوع اتصف تمر اسوان بالغرابة فكان منه رطب أشد خضرة من السلق ، ويسر يصير تمرا دون أن يرطب .

كما لاحظوا أن فى أسوان تكثر الابل والبقر والغنم التى تتمتع لحومها بالطيب والسبمن .

أما أهلها فالغالب عليهم سمره الالوان وفى لسانهم لكنة تجعلهم عندما يتكلمون يجعلون الطاء تاء فيقولون : التريق والتاق ، كما يبدلون الفاء بالباء ، والباء بالفاء .

ولما كانت اسوان قد قامت اصلا عند محاجر الجرانيت فقد ظلت على مر العصور مصدرا للعمد - ومن أشهرها عمود السوارى بالاسكندرية - وحجارة الطواحين . وربما كانت هناك علاقه لغوية بين الاسم "أسوان" وبين كلمة الصوانه وجمعها الصوان وهى ضرب من الحجارة شديد . كما عرفت اسوان بأنتاج القدور والاباريق الفخاريه .

ولما كانت أسوان سوقا فقد كان عليها أن تكون على صله بمن حولها أو هى - فى الاصح - لم تصبح سوقا إلا لاتصالها بمن حولها . فهى أقرب مكان معمور الى وادى العلاقى جنوبيها حيث مناجم الذهب والزمرد وتتصل من الغرب بالواحات . أما من ناحية الشرق فهناك طريق يربط بينها وبين عيذاب على ساحل البحر الاحمر حيث كانت ترسو وتقلع السفن القادمة من والذاهبه الى الحجاز واليمن والهند . لذلك كله ظلت لأسوان أهميتها الاقتصادية عبر العصور ، فكانت السوق الطبيعية لتجارة النوبة وأواسط افريقيه والهند ، يرد اليها العبيد والذهب والعاج وريش النعام ، ويصدر منها القمح والنبيد والمنسوجات . وفى قرون الاسلام الأولى كانت اسوان المكان المختار الذى يبدأ منه الحجاج رحلتهم - مخرقين الصحراء - الى عيذاب ومنها يركبون البحر الى جدة . على أن أهم صلات اسوان الخارجية كانت صلاتها بالنوبة . فعند أسوان تنتهى مصر وتبدأ بلاد النوبة . وتعرف المنطقة المتاخمة لاسوان من بلاد النوبة باسم "مريس" وهى كلمه مصريه قديمه تعنى الجنوب . ومازال المصريون حتى اليوم يصفون الرياح

الجنوبية بأنها مريسية . وينتمى بشربين غياث المريسي ، أحد ملاحدة الاسلام ( ت ٢١٨ ) هـ الى هذه المنطقة . وأولى مدن مريس . وبالتالي النوبة هي " القصر " التي ظلت طوال قرون كثيرة تلعب دورا هاما في العلاقات بين اسوان - أو مصر كلها في الاصح - وبين النوبة . ففيها كان يتم كل عام أداء الجزية التي فرضها المسلمون على النوبة بعد أن هادنوهم عام ٢١ هـ والتي كانت نوعا من المبادلة بين البلدين أكثر منها جزية مغلوب لغالب . وأيا كان الامر فقد كان ذلك يتم في شيء غير قليل من الجلبة إذ كان يتحرك الى مدينة القصر وفد نوبى يتكون من ممثلى الملك ، ووفد مصرى يتكون من نائب أمير مصر ووالى أسوان وأثنى عشر شاهدا عدولا من أهل أسوان . وهناك يتسلم المصريون ثلثمائة وستين رأسا آدميا من النوبة الاصحاء والاقوياء هم مقدار الجزية المفروضة رسميا . ثم يتسلمون أربعين آخرين هدية لأمير مصر ، وعشرين لنائبه ، وخمسة لوالى أسوان ، وواحدا لكل من الشهود . وفى الوقت نفسه يتسلم النوبة من المصريين المقادير المتفق عليها من القمح والشعير والعدس والثياب والخيول .

وفيما عدا ذلك كانت قوافل التجارة لاتنقطع بين أسوان والنوبة . ومع الزمن اختلط أهل البلدين ، وتشابكت مصالحهم وتوثقت صلاتهم . ولما كان أهل أسوان تجارا أغنياء فقد استطاعوا أن يشتروا فى زمن مبكر أيام الامويين والعباسيين ضياعا كثيرة فى اقليم مريس المتاخم لهم كانوا يؤدون الضريبة عنها الى حكومة النوبة المسيحية ، لكن أحد ملوك النوبة ساءه ان يمتلك المسلمون شيئا من أرض بلاده فانتهاز زيارة الخليفة المأمون مصر سنة ٢١٧ هـ ، وبعث اليه وفدا يدعى بطلان هذا البيع لان هذه الارض ملك خاص له ، ولان النوبيين الذن باعوها لايملكون هذا الحق لأنهم عبيد له ، ولا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع هو تملك العبيد العاملين فيها .. أحال المأمون المسألة على حاكم أسوان وشيوخها وعلمائها . ولما رأى أهل أسوان أن الأرض التى اشتروها

ستنزح بناء على هذه الحجة الاقطاعية من أيديهم لأنهم لم يشتروها من مالكا الاصلى لجئوا الى الحيلة فاتصلوا بالنوبيين الذين باعوا لهم الارض وأقنعوهم بأن يعلنوا عدم تبعيتهم لملك النوبة ولا يقروا بالعبودية له بل يقولوا : "سبيلنا - معاشر المسلمين - سبيلكم مع ملككم ، يجب علينا طاعته وترك المخالفة له . فإن كنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك" . وهكذا مضى البيع لعدم اقرارهم بالرق ، وتوارث الناس تلك الضياع . وأن وقوع اسوان على حدود مصر الجنوبية قد فرض عليها عبء الدفاع عن هذه الحدود ضد القبائل البدوية المتجولة من جهة وضد النوبة المتاخمة من جهة أخرى فبالرغم من العلاقات السلمية المتبادلة بين اسوان والنوبة طالما تعرضت اسوان لهجوم النوبيين عليها فيخف جيش مصر الى نجدتها على نحو ما حدث عام ٢٤٤ هـ أيام أونوجور بن الاخشيد ، وقد أصبحت بلاد النوبة شوكة في جنب مصر منذ عصر صتلاح الدين الايوبى بعد أن اغتصب كنز الدولة الحكم وجعل من النوبة دولة مستقلة . ودفعت اسوان كالعادة الجزء الاكبر من الثمن ، فقد تتابعت عليها هجمات النوبيين طوال القرن الثامن الهجرى . وفى أوائل القرن التاسع "٨٠٦ هـ" استطاع النوبيون أن ينتزعوا أسوان من مصر ويضموها بصفة مؤقتة الى ممتلكاتهم .

وفى سنة ١٣٢ هـ كانت الدولة الاموية تترنح قبل ان تنهار تماما . فكان الدعاة العباسيون قد افلحوا فى اقناع الناس بدعوتهم وتعبئة الشعوب والسخط على الامويين والشوق الى قيام العباسيين ، فى حين كان الثوار لا ينفكون يوجهون الطعنات العنيفة الى الدولة المتداعية . ولما توالى انتصارات العباسيين فى المشرق وأصبح استيلاؤهم على الحكم مسألة وقت تشجع المصريون المبايعون لهم فى الخفاء فكشفوا انفسهم وانطلقوا "يسودون" أى يلبسون السواد شعار العباسية علامة على اتباعهم دعوتهم . وأستشرت



هذه الحركة التي عرفت بأسم "التسويد" في مصر في الحوف الشرقى والاسكندرية والصعيد ، يتزعمها رجال مصريون موالون للعباسيين . أما في اسوان فقد تزعمها يحيى بن مسلم بن الأشج ، احد أفراد أسرة بنى الأشج القوية التي كانت تدين بالولاء لقبيلة بنى زهرة القرشية والتي تحمل شواهد القبور عددا كبيرا - نسبيا - من أسماء أفرادها بصورة تدل على استمرار وجودها في اسوان حتى القرن الثالث .

ومن الحق أن معظم - أن لم يكن كل - من بقى لنا ذكرهم من أهل اسوان أما محدثون وأما فقهاء وأما يجمعون بين الصفتين . ففي سنة ١٤٢ هـ توفي في اسوان المحدث المدنى عبد الرحمن بن عطاء بن كعب العامرى الذى ترك المدينة الى مصر ليموت بأسوان . ويبدو أن الامام مالكا لم يكن يرى ضرورة لهذه الرحلة فقد علق عليها بقوله : "غرب نفسه" .

وفيما بين عامى ٢٢٦ - ٢٢٥ هـ كان سهل بن سلمة الاسوانى يشتغل بالشهادة عند ابن ابي الليث قاضى مصر العنيف الذى قام بامتحان المصريين بخلق القرآن - تنفيذا لاوامر الخليفة - ونالهم منه فى ذلك أذى شديد . وقد أثر ذلك على عدالة سهل بن سلمة كشاهد ، فقد رفض الحارث بن مسكين ، الذى خلف ابن ابي الليث على قضاء مصر ، شهادته - بالرغم من أنهم عدلوا عنده - لالشيء الا لأنه من أعوان ابن ابي الليث .

واستطاع أن ينال شهرة واسعة الفقيه الشافعى ابو حنيفة الاسوانى قحزم بن عبد الله ابن قحزم ، الذى صحب الامام الشافعى وتلمذ عليه وروى عنه كثيرا من كتبه وكان اخر اصحابه موتا "ت ٢٧١ هـ" وحمل أبو حنيفة مذهب استاذة الى أسوان واقام سنين يفتى فيها به . ومن أهم ما يميز أبا حنيفة هذا انه قبطى الاصل أى مصرى ، وهو لذلك يعد احد معالم الطريق الذى شقه الاسلام فى البيئة المصرية .

وهناك أبو علي الحسن بن يوسف بن يعقوب الفحام المحدث  
الثقة ( ت ٢١٨ هـ ) الذي كان يشتغل بالحديث ويعيش من بيع  
الفحم .

ومن المحدثين الاسوانيين كذلك أبو بكر محمد بن عبد الوارث  
العسال من موالى عثمان بن عفان ، " ت ٢٢١ هـ " وكان محدثا  
ثقة . وكان يتجر بالعسل . وقد حلت به اسوا نكبة يمكن أن تحل  
بعالم ، فقد احترقت كتبه كلها ، ولم ينج منها سوى اربعة أجزاء .  
ويبدو ان ذلك الحادث اصابه بحزن شديد ادى الى وفاته بعد سنة  
واحدة .

ويوازي ابا حنيفة السابق ذكره فى الشهرة موطنه ذو المزايا  
العديدة أبو رجاء الاسوانى . محمد بن احمد ابن الربيع  
الشافعى . الاديب الفصيح الذى الف فى الفقه والطب والفلسفة  
وتوفى عام ٢٢٥ هـ . ومن أهم مؤلفاته قصيدة كبيرة ذكر فيها  
اخبار العالم وقصص الانبياء . وقد سبق بهذه القصيدة من حيث  
الموضوع الثعلبى النيسابورى ( ت ٤٢٧ هـ ) صاحب كتاب  
قصص الانبياء المسمى بالعرائس وبلغت النظر فى هذه المنظومة  
التاريخية التى ربما كانت الاولى من نوعها من حيث الشكل كذلك ،  
طولها غير العادى فقد بلغت مائة الف وثلاثين الف بيت ، وبالرغم  
من ذلك يصرح أبو رجاء بأنه قد بقى عليه اشياء تحتاج الى زيادة !  
وكما عرف المذهب الشافعى طريقه الى فقهاء اسوان ، وبالتالى  
الى اهلها ، عرفه المذهب المالكى ولكن فى وقت متاخر نسبيا . ففى  
سنة ٢٤٠ هـ توفى الفقيه المالكى الكبير أبو الذكر الاسوانى ،  
محمد بن يحيى بن مهدى التمار الذى اشتغل بتجارة التمر - وهذا  
طبيعى بالنسبة الى اسوانى - ومهر فى الفقه حتى كان المشار اليه  
فى مذهب مالك بمصر . ونال أبو الذكر فى مصر قدرا ومنزلة جليلة  
وولى قضاءها . وكان عابدا مجتهدا فى العبادة بالرغم من ان

أصابته بالباسور كانت تضعفه عن أدمان التعبد .  
وأخيرا فلقد عاشت اسوان حياة نشطة مارست فيها التجارة  
والعلم والحرب وكان لها دور ايجابي وفضل بارز على الحياة  
المصرية على مر العصور ، ولاشك في أن الانحلال العام الذي  
أصاب الكيان المصري كله منذ أيام المماليك هو المسئول عن  
الانحدار المطرد الذي سارت فيه اسوان حتى لم تعد في العصر  
الحديث أكثر من مشتي للسائحين ومنفى للموظفين ويخيم عليها  
الخمول ويطبعها التخلف ولم يفلح خزان اسوان الذي أقيم عندها  
في مطلع القرن الحالي في أن يجدد شبابها . لكن لاشك أن السد  
العالي قد أنشأها خلقا آخر . ومن الطريف أننا نجد في هذا  
الموقف تطبيقا جديدا لذلك القول القديم جدا ، قول الجامعة ابن  
داود الملك : " ما كان فهو ما يكون ، والذي صنع فهو الذي يصنع ،  
فليس تحت الشمس جديد " . فكما أن المصري قد فكر في ، بل  
حاول ، الربط بين البحر الاحمر والبحر الابيض أكثر من مرة قبل  
أن يتحقق ذلك على صورته الحالية في العصر الحديث ، فكذلك  
يروى ياقوت ( ت ٦٢٦ هـ ) عن الجغرافي الرحالة ابي بكر الهروي  
" ان عند اسوان موضعا ضيقا في النيل ذكر أنهم أرادوا أن  
يعملوا جسرا عليه . ليت شعري اهو نفس الموضع الضيق الذي  
اقيم السد عليه اليوم . من يدري ؟ " .

## النوبة : بلاد الاساود

### الفتح

لما فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ كان عليهم لكى يؤمنوا مراكزهم بها ، لا أن يمدوا سلطانهم ناحية الغرب فحسب ولكن ناحية الجنوب كذلك حيث كانت تبدأ بعد أسوان - نهاية حدود مصر - حدود بلاد واسعة تسكنها قبائل محاربة دائمة التطلع الى أرض مصر الغنية والاغارة عليها ، تلك هى بلاد النوبة حيث كانت تقوم منذ أواسط القرن السادس الميلادى مملكة مسيحية شعبها مزيج من الليبيين والزنوج وتتخذ من دمقلة ( دنقله القديمة حاليا ) عاصمة لها . جعل عمرو بن العاص يرسل كتائب الفرسان تقتحم على النوبيين أرضهم وتناوشهم دون أن تصل الى نتيجة حاسمة ، فقد وجدت فيهم محاربين أشداء لا يعتمدون على السيف فى القتال ولكن على القوس التى يرمون عنها فلا يخطئون . ولاشك فى أن المغيرين العرب قد أحسوا حينذاك بما بين بلاد النوبة وبين اليمن من تشابه فى البيئة والجوحتى كأنها جزء من أرضه ، ورأوا ماينبت بها من الحنطة والشعير والذرة والنخل والكروم ، والموز والاترنج ، والمقل والاراك ، ومايسعى عليها من الابل والبقر والغنم ، والخيول والبراذين . بل لعل ألسنتهم عربت حينذاك فقط كلمة نوباتاي **nobatae** التى كانوا يعرفون بها منذ نقلهم دقلديانوس الامبراطور الرومانى من واحة الخارجة الى وادى النيل عام ٢٨٥ م ثم صرف عمرو عن حكم مصر وخلفه عليها عبد الله بن سعد بن أبى سرح عام ٢٥ هـ . ولما لم تكن مهمة تأمين مصر قد تمت بعد فقد كان على الحاكم الجديد أن يواصل العمل غربا وجنوبا . فجهز حملة

ضخمة لغزو النوبة عام ٣١ هـ سارت أربعين ليلة من أسوان حتى بلغت دمقله فحاصرتها ، وضربتها بالمقاليع وهدمت كنيستها ، ولكن دون أن تستطيع أن تحرز نصرا كاملا إذ لم يتلاحم هؤلاء الاساود - وهو الاسم الآخر ، ولعله الاقدم ، الذى كان العرب يطلقونه على النوبة - مع العرب فى معارك شخصية يستعملون فيها السيوف والرماح ، وإنما كانوا يقفون بعيدا ويشدون أقواسهم فينطلق منها وأبل من السهام التى لاتضل طريقها الى أجسام العرب والى عيونهم بالذات . وصمد العرب . ولكن السهام لم تكف تنهمر عليهم فتدمى جسامهم ، وتفقأ عيونهم حتى عدت مائة وخمسون عينا مفقوعة من بينها عيون جماعة من كبار القادة : معاوية بن حديج ، سهم بن ابرهه بن الصباح ، حيويل بن ناشره . كانت المعركة مريعة بقدر ما كانت متكافئة . ولم يجد الشاعر العربى غضاضة فى الاعتراف بضرارتها حين قال :

لم تر عيني مثل يوم دمقله      والخيل تعدو بالدروع مثقله  
ولم يكن الصلح فى معركة أفضل منه فى هذه . وكان كل من الجانبين راغبا فيه إذ لم يكن الاستمرار فى القتال يعنى سوى مزيد من الخسائر دون نتيجة حاسمة . وتهادن الفريقان هدنة الندين ، وعقد عبد الله بن سعد مع قليدوروث ملك النوبة صلحا - ليس عهدا ولا ميثاقا - يدفع النوبة الى العرب بمقتضاه كل عام ثلثمائة وستين رأسا من الرقيق الاصحاء الشبان من الرجال والنساء ، فى حين يحمل العرب اليهم كميات واعدادا معينة من القمح والشعير والعدس والثياب والخيل . وشيد العرب خارج دمقله مسجدا يسجل وصولهم الى هناك ، وجعلوا الاعتداء عليه سببا من أسباب نقض الهدنة . ثم رجعوا الى مصر وقد أطلقوا على النوبة اسما ثالثا هو « رماة الحدق » .

صلوات :

لم يستطع العرب أن يخضعوا النوبة ، ولكنهم استطاعوا أن يأمنوا جانبهم ولم تدخل النوبة فى دائرة النفوذ الاسلامى ولكن

أصبح عليهم أن يتعاملوا مع الدولة الإسلامية . ففي كل عام كان يذهب ضابط مصري الى بلدة القصر ، على خمسة أميال جنوبى أسوان ، ليتسلم الرقيق ويسلم المواد الغذائية وغيرها . وكان هؤلاء الرقيق اذا دخلوا مصر اعتنقوا الاسلام ، وتحولوا الى موال وأصبحوا جزءا من جسم الأمة الإسلامية . وظلت عملية التبادل هذه قائمة حتى عصر المماليك أى لأكثر من ستة قرون بعد عقد الهدنة .

وتعبيرا عن حسن النية والمشاعر الودية أهدى ملك النوبة منبرا الى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبعث معه نجارا يسمى بقطر **Victor** وهم قوم ذوو خبرة عريقة فى شئون دور العبادة - ركه فى مسجد عمرو الجامع . ولم يزل هذا المنبر النوبى هناك حتى زاد قره بن شريك أمير مصر فى الجامع سنة ٩٤ هـ فنزعه ونصب بدلا منه منبرا جديدا .

ولما كانت مصالح العرب فى جنوب مصر ترتبط بصفة أساسية باستغلال مناجم العلاقى ، وهى متصلة بالبحر أكثر من اتصالها بالنوبة ، فقد ظل التبادل بين مصر والنوبة جد محدود . وبالرغم من هذا بدأ التجار المسلمون يتوغلون فى بلاد النوبة منذ وقت مبكر ، ويقال أنهم كان لهم مكان خاص لإقامتهم « ربض » فى مدينة علوة منذ القرن الثالث - الرابع الهجرى .

لم يخضع العرب بلاد النوبة عسكريا ولا سياسيا ، ولذلك أستطاع النوبيون أن يحتفظوا بديانتهم المسيحية . ولما كانت المسيحية قد دخلت هناك فى أواسط القرن السادس الميلادى على يد أساقفة يعاقبة عن طريق مصر فقد أصبح النوبة منذ اللحظة الاولى يعاقبة كالمصريين يقولون بوحدة اللاهوت والناسوت فى المسيح ولا يطنون النساء فى الحيض ويغتسلون من الجنابة . كما كانت كنيستهم تعترف برئاسة بطريك الاسكندرية وتتبعه واستمرت العلاقة بين الكنيسة النوبية والكنيسة المصرية قائمة فى العصر الاسلامى الا أنها دخلت تحت رقابة الدولة . وحدث فى عام



١٣٠ هـ أن تشكك والى مصر ، عبد الملك بن موسى بن نصير ،  
فى هذه العلاقة فقبض على رسول كنيسة دنقله الى مصر وأعتقله ،  
كما قبض على خايل بطريك القبط . ويزعم المؤرخون المسيحيون  
الذين ينفردون بهذه الرواية أن قرياقوس ملك النوبة غضب لذلك  
غضباً عظيماً ، وخرج من بلاده على رأس مائة ألف فارس نوبى  
فدخل الصعيد وقتل وسبى ، ثم تقدم فى الاراضى المصرية نحو  
الشمال حتى وصل الى بركة الحبشة خارج الفسطاط وأصبح يهدد  
العاصمة . وبادرت السلطات المصرية فأخلت سبيل البطريرك  
السجين . ولكن الملك النوبى . « بطل السودان » لم يرض بالعودة  
الى بلاده الا برجاء من البطريرك نفسه .

وفى سنة ١٣٢ هـ حارب مروان الحمار آخر خلفاء بنى أمية  
معركته الاخيرة الخاسرة فى مصر . وقتل فى بوصير الملق .  
وبالرغم من أن هدنة سنة ٣١ هـ بين المصريين والنوبة تلزم  
الاخيرين برد أباق المسلمين ومن لجأ اليهم من أهل الذمة فلم يجد  
عبد الله وعبيد الله ابنا الخليفة الصريح مهرباً أبعد ولا ملجأً آمن من  
النوبة يفران اليه بعد مصرع أبيهما وأنهيار دولتهما .

ولما كان النوبة محاربين مهرة فقد استعملهم أحمد بن طولون  
فى جيشه الكبير الذى أنشأه بمصر الى جانب غيرهم من الجند  
الروم . ولما بنى ابن طولون القطائع سنة ٢٥٦ هـ لاقامة جنوده  
وأتباعه كان للنوبة قطيعة « حارة » مفردة تعرف بهم .

وفى سنة ٣٥٢ هـ ، فى أيام كافور ، هبط النيل سريعاً ووقع  
الغلاء بمصر فنسى النوبيون الهدنة ، وأغاروا على الصعيد  
يضرمون النار ويعملون السيف . ثم رجعوا وقد تركوا الناس نهبا  
للمجاعة والوباء .

وبعد أن استقر المقام بالمعز لدين الله فى القاهرة عام ٣٦٢ هـ  
وجه الى جرجس ملك النوبة بعتة تدعوه الى اعتناق الاسلام  
وتستقضيه الجزية المألوفة . وأستقبل الملك أتبعته أستقبالا وديا

وآعطاها ماتريد ولكنة رفض التحول عن دين الالاء والالاء . ومن الحق أن بلاد النوبة وعاصمتها دنقله ظلت تقف حاجزا يمنع توغل الاسلام الى جنوب القارة الافريقية حتى القرن السادس عشر الميلادى حين بدأت دعائم المسيحية تهتز .

شخصيات :

منذ هذنة عام ٣١ هـ ظل يدخل مصر كل عام بصفة رسمية وبأنتظام حوالى أربعمئة من رقيق النوبة الى جانب الافراد الذين كانوا يفدون بمحض ارادتهم وكان طبيعيا جدا أن يؤدى هذا الى ظهور العنصر النوبى فى المجتمع المصرى وتأثره بهذا المجتمع وتأثيره فيه .

عاد المسلمون من معركة دمقله ( ٣١ هـ ) ومعهم سبيهم منها . ولما وزع السبى على المقاتلين الذين اشتركوا فى المعركة كان من نصيب شريك بن طفيل العامرى - أحد اهل المدينة - رجل نوبى ضاع اسمه الاصلى ولم يعد يعرف بغير « سويد » الاسم العربى الجديد الذى أطلقه عليه سيده مراعياف فيه لونه فى أغلب الظن اعتنق سويد الاسلام ، وأستمع الى من أدرك من الصحابة ، وصلى الجمعة مع أمير مصر قيس بن سعد بن عبادة سنة ٣٧ هـ ، وروى الحديث ، وتزوج وأنجب ، وأصبح يكنى أبا حبيب ، ولاتنحصر أهمية سويد هذا فى كونه من أوائل من أسلم من النوبة وعاش فى مصر ، اذ انه يكتسب أهمية أكبر من ناحية انه زود الفقه الاسلامى فى مصر بواحد من أكبر رواده هو ابنه يزيد بن أبى حبيب . كان لعبد العزيز بن مروان الذى حكم مصر من ٦٥ - ٨٦ هـ بلاط كبلاط الخلفاء ليس فقط لانه أخ للخليفة القائم فى دمشق ولكن كذلك لضخامة وثراء الاقليم الذى يحكمه مستقلا بموارده . والى هذا البلاط وفد ، وفيه لمع عدد من مشاهير الشعراء منهم نصيب بن رباح الشاعر الاسلامى الفحل ، الاسود ذو الشعر المفلفل والعارضين الخفيفين والحنجرة الناتئة ، الذى ظل يمدح عبد العزيز

بشعره الجميل من مثل قوله :

فبشر أهل مصر فقد آتاهم  
يقول فيحسن القول ابن ليلي  
مع النيل الذي فى مصر نيل  
ويفعل فوق أحسن مايقول

فينال جوائزه السنه لينفقا في أعتاق أفراد أسرته وتحريرهم  
من العبودية ذلك بأن نصيبا كان عبدا نوبيا ينحدر من أبوين  
نوبيين . ولم يكن نصيب يجيد الشعر فحسب ولكن كان - كقومه  
يبرى النبل ويريشها ، ويرمى ويصيب . وكان لنبوغ نصيب الفنى  
الذى فتح له الطريق الى الطبقة الارستقراطية الحاكمة أهمية كبرى  
بالنسبة الى قومه النوبيين المقيمين فى مصر . حمله عبد العزيز  
ذات يوم على جمل . وألبسه مقطعات وشى . وأمره أن ينشد ،  
فاجتمع حوله السودان وفرحوا به ، فقال لهم :  
أسررتكم ؟

قالوا : أى والله . قال والله لما يسوءكم من أهل جلدتكم أكثر .  
ومات عبد العزيز فى الطاعون الذى اجتاح مصر عام ٨٦ هـ فوقف  
نصيب يشيعه ويبيكه بأبيات حزينة منها :

لم يعلم النعش ما عليه من الـ عرف ، ولا الحاملون ما حملوا  
حتى أجنوه فى ضريحهم حيث انتهى من خليله الامل  
فى عام ٥٣ هـ أنجب سويد النوبى الذى مر ذكره منذ لحظات  
غلاما أسود شديد السواد « كأنه فحمة » سماه يزيد . وأدرك يزيد  
آخر صحابى مات بمصر وعددا كبيرا من مشاهير التابعين سمع  
منهم الحديث وتلقى عنهم أحكام الدين . وكان ذكيا نجيبا فوعى  
ماسمع . ولم يلبث حتى نبغ وأحتل مكانه بين علماء مصر  
وفقهاؤها .

أرسى يزيد بن أبى حبيب النوبى الإصل أسس الدراسة الفقهية  
فى مصر . وعرف له الخليفة عمر بن عبد العزيز قدره فجعله أحد  
ثلاثة يتولون شئون الفتيا بمصر . وكان ثانى رجل فى مصر يبايع  
الخليفة الجديد حين تجىء البيعة له ، وبعده يبايع سائر الناس .  
وكان حليما عاقلا يقول : « انما غضبى فى نعلى ، فاذا سمعت

مأكره أخذتهما ومضيت » . وكان له أثر كبير فى تخفيف حدة التيار العلوى بمصر وتقوية التيار العثمانى . وبالرغم من أنه لم ينعم بالحرية الا بعد أن أعتقه سيده ، وأن لونه كان يذكره دائما بأصله القريب ، فقد كان أحساسه بأسلاميته أقوى من أحساسه بنوبيته ، يتجلى ذلك فى قوله : « ليس بيننا وبين الاساود عهد ولا ميثاق ، انما هى هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطونا رقيقاً » . ويكفى أن نعلم أن الامام الجليل الليث بن سعد ليس سوى أحد تلاميذ يزيد بن أبى حبيب هذا ، وكان يذكره فيقول : « هو سيدنا وعالمنا » . وقد ظل ابن أبى حبيب حتى مات عام ١٢٨ هـ أوثق مرجع فى مصر لافى المسائل الفقهية فحسب بل فى الروايات التاريخية كذلك .

من منا لم يسمع بذى النون المصرى ، ثوبان أبى الفيض بن ابراهيم الحكيم ، الفصيح ، الزاهد ، الواعظ ، أوجد وقته علما وورعا وحالا وأدبا زعيم مذهب " الاتصال بالله " ودعامته الكبرى ، والذي أعطى التصوف شكله الدائم حين قرر أن حقيقة معرفة الله لايتوصل اليها الا بوساطة « الوجد » فأنكر عليه أهل مصر وقالوا : « أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة » ، وسعوا به الى المتوكل وأطلقوا عليه اسم « الزنديق » ، فسيق الى السجن فى يده الغل وفى رجليه القيد ، والناس حوله يبكون ، وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى وعطاياه : وكل فعاله عذب حسن طيب ثم ينشد :  
لك من قلبى المكان المصون      كل لوم على فيك يهون  
لك عزم بان أكون قتيلا      فيك ، والصبر عنك مالا يكون  
ولد ذوالنون هذا فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، فى أخميم من صعيد مصر ، من - وهذا هو المهم - أبوين نوبيين ، فكان نحيفا تعلوه حمرة . ويقال أنه كان يستطيع قراءة الكتابة الهيروغليفية على جدران الهياكل كان يدفعه الى ذلك اشتغاله بالصنعة أى الكيمياء .

ولما مات ذو النون فى الجيزة سنة ٢٤٥ هـ احتشد الناس ليكون لهم شرف تشييعه ، فحمل فى مركب حتى عدى به الى الفسطاط خوفا من زحمة الناس على الجسر - وكان جسرا خشبيا يمتد فوق صف من القوارب عبر النيل - ثم دفن فى القرافة .  
لم تزل الامور فى مصر ، ابتداء من أول القرن الثالث الهجرى ، تتعقد وتساء نتيجة للسياسة الغاشمة التى كانت الدولة تتبعها اقتصاديا واجتماعيا ودينيا . ولم تكن الثورة العاتية التى أشعلها جابر بن الوليد المدلجى ، أحد أبناء قبيله مدلج القوية ، فى الاسكندرية فى ربيع الاخر سنة ٢٥٢ هـ سوى واحدة من الانفجارات العنيفة التى لم تكن تنفك تدوى فى الحياة المصرية بين الحين والحين كرد فعل للسياسة المذكورة .

لم تكن ثورة المدلجى تشتعل حتى وجدت استجابة سريعة وكاملة من فئات الشعب المختلفة . فأيدها وانضم اليها وأسهم فيها مساهمة ايجابية القبط الذين كانوا يرزحون تحت وطأه اضطهاد دينى واقتصادى اليم ، والعرب الذين أسقطهم المعتصم من الديوان عام ٣١٨ هـ فطردهم بذلك من الطبقة الارستقراطية الحاكمة لينضموا الى صفوف الشعب الكادح ، والعلويون الذين كانوا هدفا دائما للمصادرة والسجن والنفى . اتفقت مصالح كل هؤلاء ضد الحكام الاتراك الذين انتهى بهم الامر الى السيطرة لاعلى مصر وحدها ولكن على الخلافة نفسها كذلك ، ورأوا فى جابر المدلجى رمزا لسخطهم فانضموا اليه .

كان ممن انضم الى المدلجى أبو حرملة فرج النوبى - وكان رجلا فاتكا يحتمل انه نفس فرج الاسود الذى لعب دورا مع عبد العزيز الجروى فى ثورته الكبيرة التى أمتدت من عام ١٩٩ حتى عام ٢٠٥ هـ - فعقد له جابر على عدة كور من الدلتا ليستولى عليها ويحكمها . ومضى أبو حرملة فى جيش عظيم فحارب قوات الدولة فى هذه الكور وهزمها ، وطرد العمال منها ، وتولى حكمها ومضى

يجمع خراجها بعد أن اتخذ من شرقيون ( المحلة الكبرى ) حاليا عاصمة له .

أما ظهر نجاح أبي حرملة أسرع اليه ثوار آخرون منهم ابن الإرقط العلوى ، فجعلهم قوادا معه وأسند اليهم حكم بعض الأقاليم . ولكن يزيد بن عبد الله حاكم مصر التركى لم يلبث حتى تحرك لقمع هذه الثورات ، فسير قوات الدولة الى أبى حرملة . ودارت بين الفريقين معارك كثيرة عنيفة تبادلا فيها الهزيمة والنصر وكان شمال الدلتا مسرحا لها . وفى خلال ذلك - فى رجب ٢٥٢ هـ - على وجه التحديد - وصل الى مصر من عاصمة الخلافة القائد التركى الكبير مزاحم بن خاقان على رأس جيش ضخم لاختماد ثورة المدلجى وأتباعه . وكان لهذه الخطوة أثرها الكبير فى أضعاف روح الثورة ، فاستسلم بعض الزعماء وتفرق كثير من المحاربين وكأنهم قد أيقنوا سلفا بعجزهم أمام قوات الخلافة . أما أبو حرملة فلم يلبث حتى وقع فى الأسر وأرسل الى القسطنطينية فى جمع كبير من الأسرى فى رمضان من العام نفسه .

وبالرغم من أننا لانعرف شيئا من أخبار أبى حرملة ، التأثير النوبى الاصل ، فى الأسر ، فأن لنا أن نتوقع أنه لاقى فيه كل ضروب العذاب والهوان . وظل أبو حرملة يرسف فى أسره سبعة أشهر كاملة حتى أدركه الموت فى ربيع الآخر من عام ٢٥٣ هـ ، وكأنما غاظ السلطات أنه افلت من قبضتها قبل أن تصلبه حيا فصلبته ميتا بالمصلى .

أما بعد :

فلقد كان دخول الاسلام القارة الافريقية عاملا جوهريا فى توجيه الحياة بها وتقرير مصير شعوبها ولئن كان النوبة قد استطاعوا أن يستعصوا على الاسلام كعقيدة ، لبضعة قرون ، فلقد كان عليهم منذ اللحظات الاولى أن يكيّفوا شئونهم وفق الاسلام كقوة سياسية هائلة متاخمة . وكان من مظاهر ذلك تمسح ملوكهم فى العروبة حين زعموا أنهم من حمير .



كما كان من مظاهره تلك الأحاديث التي صنعت خصيصا لهم وبناء على طلبهم لتخلع عليهم ميزات هامة . وتؤمن بالتالى وجودهم فى الجماعة الاسلامية انصياعا لموقف نبي الاسلام نفسه الذى نسبوا اليه أنه قرر أن النبوة خير الاعوان والاتباع حين قال : « خير سبيكم النبوة » . كما مدحهم بأنهم أصحاب عون ووفاء ومودة فى قوله : « من لم يكن له أخ فلْيَتَّخِذْ أَخًا لَهُ مِنَ النَّبَوَةِ » ولم ينس النبي الكريم أن يوصى أتباعه بهم - مثلما أوصى بشعوب أخرى منهم القبط مثلا - تقديرا لمزاياهم العملية النافعة فى قوله : « استوصوا بالنوبا ( كذا ) خيرا فأنهم يشدون الفتوق ، ويحفرون الخنادق ، ويطفئون الحريق » .

## السموأل المصرى

### ١ - الأخوة الأعداء

الأرجح أن الثورة التى نشبت فى شمال شرقى الدلتا فى منتصف رمضان ١٩٤ هـ ، والتى سرعان ماأخمدتها قوات الدولة بقيادة السرى بن الحكم وآخرين ، انما كانت تأييدا للخليفة الأمين فى اجراءاته ضد أخيه المأمون ، هذه الاجراءات التى انتهت بخلع المأمون من ولاية العهد ، نقضا لما كان هارون الرشيد قد قرره قبل موته فى جمادى الآخرة ١٩٣ هـ ، وتعيين الطفل موسى بن الأمين بدلا منه فى ولاية العهد .

غير أن الأمور فى العاصمة المصرية ، الفسطاط ، سارت فى اتجاه آخر . فان السرى بن الحكم المذكور تفاهم مع قائد آخر فى الوضع ، واتفق معه على اطلاق اعلان التمرد على الخليفة الأمين والوقوف الى جانب المأمون ولى العهد المخلوع . ولما كان السرى ينتمى الى القوات العسكرية القادمة من فرسان والمقيمة بمصر كجزء من قواتها المسلحة الرسمية ، فقد كان طبيعيا أن يتوجه الى أفراد هذه القوات للدعوة الى خلع الأمين والمناداة بالمأمون . ولقيت دعوته استجابة محدودة فى هذا النطاق الضيق ، اذ كان الاتجاه العام لأهل مصر مواليا للأمين بما هو الخليفة الشرعى . غير أن الاعتداء على حق المأمون فى ولاية العهد من جهة ، ومكاتباته السرية الى اشراف أهل مصر من جهة أخرى ، أفلحت فى اقناع بعض كبار المصريين بالانضمام الى المأمون ، وتوسيع حركة التمرد على الأمين فى مصر بزعامة زرعة بن معاوية الخولانى .

وهاشم بن عبدالله بن حديج التجيبى

لنا الحق فى أن نتوقع أن هاشم بن عبدالله - وكان من كبار موظفى الدولة - اصطحب معه فى هذا الاتجاه الخطير ابنه الشاب هبيرة لا لكى يسانده ، وإنما لكى يفتح أمامه باب الدخول الى الحياة العامة بكل ماتنتوى عليه من احتمالات السلطة والمجد واحتمالات الخطر والموت سواء بسواء . كان طبيعيا أن يكون هذا هو هدف الأب ليس فقط لأنه نفسه أحد رجال الدولة المسئولين ، وإنما كذلك مواصلة لدور قبيلة تجيب بعامة وأسرة الحديجيين منها بخاصة ، هذا الدور الذى بدأ منذ اللحظة الأولى للفتح العربى لمصر ( ٢٠ - ٢١ هـ ) ، والذى ظل مستمرا طوال القرون الثلاثة الأولى والذى لم تكف قبيلة تجيب وأسرة الحديجيين خلاله عن تزويد الحياة العامة فى مصر بل فى شمال أفريقية والأندلس ، بالعديد من الشخصيات البارزة المؤثرة مابين أمراء ، وقادة عسكريين وموظفين كبار ، وفقهاء وقراء ومحدثين ، وشعراء . ويمكن تطبيق نفس التفكير والأهداف على زرعة بن معاوية وابنه الحارث .

### ★★★

جابر بن الاشعث الذى ولاه الأمين امرة مصر (جمادى الآخرة ١٩٥ هـ) كان رجلا لنا محببا الى الناس من العامة والخاصة . وعلى الرغم من أنه ادرك خطورة الطريق الذى انتهجه السرى بن الحكم ثم تابعه عليه أولئك الزعماء من أهل مصر فى التمرد على الأمين الذى كان مايزال يحظى باعتراف أغلبية أهل مصر ، وماسيؤدى اليه ذلك بالضرورة من انقسام المصريين الى حزبين لامفر من تصادمهما فى حرب أهلية ... نقول ان جابرا على الرغم من ذلك لم يبادر الى اتخاذ اجراء حاسم يئد الفتنة فى مهدها ، وإنما أثر ان يبعث الى زعماء التمرد ينهاهم عن ذلك ويخوفهم عواقب الفتن .

لم يكثر السرى بالتحذير الودى المتعقل من أمير مصر بل انطلق يواصل دعوته الى خلع الأمين والى مناداه بالمأمون . ولاشك

في أنه ازداد تمسكاً بدعوته ليس فقط لما أكسبه ذلك من شهرة وزعامة في مصر ، وإنما كذلك نتيجة لما راح عسكر المأمون يحرزه من انتصارات على جيش الأمين في خراسان ( ١٩٥ - ١٩٦ هـ ) حتى لقد جعل المأمون يتصرف كخليفة حقيقي بعد أن سلموا عليه بالخلافة هناك .

إدراكاً لوزن مصر وأهمية دورها في ذلك الصراع عنى المأمون بتشجيع الحزب المؤيد له في مصر ودفعه الى الاقدام على عمل حاسم فكتب هرثمه بن اعين - احد قواد المأمون وكان يملك ضياعاً بمصر - الى وكيله على هذه الضياع ، عباد بن محمد بن حيان ، يأمره أن يقوم في خلع الأمين بمصر . لم يكن عباد ذا كفاءة عملية اقتصادية فحسب وإنما كان كذلك ذا مهارة سياسية ومعرفة بالحروب . فلم يزل بأهل مصر يدعوهم الى خلع الأمين حتى اقتنع معظمهم بذلك . حتى اذا كان اليوم الثاني والعشرون من جمادى الآخرة ( ١٩٦ هـ ) وجه الى الجند الدعوة لاجتماع في المسجد الجامع مسجداً عمرو بن العاص بالفسطاط . وهناك قرأ عليهم الكتاب الصادر اليه من سيده هرثمة ، فاستجابوا له وأعلنوا بيعتهم للمأمون خليفة للمسلمين . وفي مقابل ذلك صرف عباد الحصيف لهم مكافآت مالية يسبيرة من أموال سيدة هرثمة طبعاً .

اذ بلغت الأمور هذا الحد لم يكن أمام جابر بن الأشعث ، أمير مصر المعين من قبل الأمين ، بد من أن يقوم بواجبه دفاعاً عن الخليفة الذي يدين له بمنصبه . فتحرك في نفس اليوم بقوات الدولة لضرب المتمردين والغاء قرارهم الخطير . غير أن الوقت كان قد فات ، والزماء قد أفلت ، واستطاع السرى بن الحكم ، المع زعماء التمرد ، أن ينزل هزيمة سريعة بنجابر وقواته ، ويعزله عن إمرة مصر بصورة قبيحة لا تتفق مع وداعته ومسالمته ومخبته بين الناس فضلاً عن مكانته كأمرير للبلاد . ثم جاءت المناداة في مصر بالمأمون خليفة في الثامن من رجب ( ١٩٦ هـ ) اجراء طبيعياً جعل من مصر أول ولاية في الجزء الغربي من الإمبراطورية الإسلامية

تنضم الى المأمون ، خليفة المستقبل ، فى الصراع الذى فرض عليه من قبل أخيه الأمين .

كان المأمون قد بلغ من ثقته بالنصر والظفر بالخلافة ، وأن المسألة باتت مسألة وقت ، مبلغا جعله لايتصرف كخليفة كامل السلطة فقط بل انه كذلك أطلق على نفسه لقب "امير المؤمنين" . لذلك ماأن علم بوقوع مصر فى قبضة حزبه حتى يادر الى تعيين عباد بن محمد أميرا على مصر توكيدا لسلطته عليها من جهة ومكافأة لعباد ، ناظر العزبة المحنك ، من جهة أخرى .

أما عباد ، وقد ألت اليه مقاليد الأمور فى مصر يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، فلم يجد بدوره أنسب من منصب صاحب الشرط (وزير الداخلية) يسنده الى الشاب هبيرة بن هاشم ذى النسب العريق من جهة ، وأحد أفراد قبيلة تجيب الضخمة القوية من جهة أخرى ، مكافأة له على مشاركته الايجابية مع أبيه فى حركة التمرد الخطيرة التى نجحت فى أن تضع مصر فى قبضة المأمون ، وفى أن تقفز بعباد الى منصب الامارة .

على الرغم من موقف الأمين البالغ الضعف والسوء فى بغداد العاصمة التى سادها القتال والفوضى ، وعلى الرغم من أنه خلع من الخلافة فى بغداد وأعيد اليها عدة مرات فى نفس السنة (١٩٦ هـ) ... نقول ان الأمين على الرغم من هذا رفض أن يستسلم لخروج مصر من قبضته فكتب الى ربيعة بن قيس ، رئيس قبيلة قيس القوية المقيمة بالحواف شرقى الدلتا ، يعينه أميرا على مصر . وكتب فى نفس الوقت الى ثلاثة آخرين من كبار زعماء أهل الحواف يأمرهم بمعاونة قيس فى تشكيل اكبر قوة عسكرية ممكنة للهجوم على الفسطاط ، واسقاط النظام الموالى للمأمون القائم بها ، وبالتالي الغاء ماتم من الاعتراف بالمأمون خليفة فى مصر . وجد عباد فى حفر خندق حول الفسطاط أنجع وسيلة لحماية عاضمته من جهة. وتجنب الصدام المباشر مع أهل الحواف

المحاربين ذوى البأس الشديد من جهة أخرى ، عبر هذا الخندق دارت فى خلال سنة ١٩٧ هـ ثلاث معارك ، لم تكن فى حقيقتها أكثر من مناوشات ، بين قوات عباد وقوات أهل الحوف الذين كانوا يعودون كل مرة الى بلادهم دون تحقيق هدفهم . فصمموا على وضع حد لهذا كله فى معركة شنوها على الخندق فى المحرم ١٩٨ هـ وتلقاهم فيها السرى بن الحكم على رأس قوات الدولة . وفيما كان القتال مستعرا ، والرجال يتساقلون صرعى من الفريقين وصلت الأنباء بأن محمدا الأمين قد قتل وبويع المأمون بالخلافة ، فتفرق أهل الخوف منكفئين الى ديارهم بعد أن لم يعد ثمة مبرر لمواصلة القتال .

## ٢ - الاختيار النبيل

لعل المأمون لم يكن يرى فى عباد بن محمد سوى مجرد ورقة عرف كيف يلعب بها ، فلما انتهت اللعبة الدامية لصالحه فقدت تلك الورقة قيمتها ، اذ أنه لم يلبث حتى صرف عبادا عن امرة مصر فى الشهر التالى . أما هبيرة بن هاشم فقد ظل يشغل منصبه المرموق كصاحب للشرطة . غير أن ذلك لم يدم طويلا ، فان أمير مصر الجديد ، المطلب بن عبدالله الذى وصل الى مصر فى منتصف الشهر التالى (ربيع الأول ١٩٨ هـ) لم يلبث حتى صرفه عن الشرطة بعد فترة لعله أستغلها فى الوقوف منه على خفايا البلد وحقائق الأوضاع فيه .

لابد أن الأوضاع كانت قلقة جدا فى مصر حينئذاك ، ذلك بأن المطلب لم يلبث حتى عزل صاحب الشرط الجديد الذى ولاه بدلا من هبيرة . ثم لم يلبث حتى صرف صاحب الشرط الجديد بثنان ثم ثالث ، ليعود اخر الامر ويعيد هبيرة الى مكانه من جديد وكأنما لم يجد أكفأ ولا أفضل منه ليشغل هذا المنصب الحساس . ولابد أن ذلك قد ارتفع بأسهم هبيرة فى الحياة العامة ، ورسخ قدمه كرجل دولة لايمكن الاستغناء عنه بنفس القدر الذى يمكن به الاعتماد عليه . وان كان تعاقب خمسة رجال على منصب وزير الداخلية فى



خلال سبعة أشهر ونصف ، هي كل الفدة التي قضائها المطلب في امرته الأولى على مصر ، لأكبر دليل على مدى اضطراب الأرض تحت قدمى السلطة فى البلاد آنذاك .

كان المفروض أن يضع تربع المأمون على دست الخلافة فى بغداد حدا للاضطراب والعنف فى مصر . غير أن ذلك لم يتحقق . فقد عاد أهل الحوف الى التمرد على الدولة الجديدة ، وخاضوا قتالا ضد قواتها فى الدلتا ، ولم يخلدوا الى السكينة الا عندما انتقل السرى بن الحكم بقواته الى ديارهم وأقام بها فيما يشبه الاحتلال العسكرى . كما رفضت مدينة الاسكندرية الوالى الذى عينه المطلب عليها . بل أنها هزمت اخا المطلب نفسه عندما سار اليها على رأس قوات من الدولة ليرغمها على الازعان .

وكأنما لم يكن فى هذا كله الكفاية ، فان السرى بن الحكم انتهز فرصة هذه الامارة الجديدة ، امارة المطلب ليتخلص من خصومه السياسيين . فقد راح منذ اللحظات الأولى يوغر صدر المطلب على أهل مصر الذين وقفوا طويلا فى صف الأمين ، وخص بالذكر منهم زعيما يدعى ابراهيم بن نافع الطائى كانت بينهما خصومة شخصية لم يتردد الأمير الجديد فى تصديق دسيسة السرى بن الحكم قائد أهل خراسان وزعيم الفتنة المنصرمة ، فأرسل فى طلب ابراهيم الطائى المفترى عليه . لم يكن لدى ابراهيم ، فيما يبدو الوقت الكافى ليهرب من الفسطاط نجاة بخياته من المصير الذى لاشك ينتظره عند الأمير الجديد . فلم يكن أمامه بالتالى سوى الاستفادة من ذلك التقليد العربى العريق الذى كان شائعا فى الجاهلية ثم أقره الاسلام وأبقى عليه لما ينطوى عليه من انسانية عميقة ونجدة نبيلة ، ذلك هو تقليد الجوار . لا بد أن ابراهيم لم يتردد لحظة فى أن يسرع الى دار هبيرة بن هاشم بالفسطاط يستجير به ويحتفى به من يد الأمير التى تبحث عنه بتحريض من السرى . ولاشك كذلك فى أن هبيرة كان عند ظن الطائى بنبله وحفاظه على قيم الاسلاف ، فلم

يتردد لحظة في ان يبسط فوقه رداءه ، ويمنحه جواره وهو يدرك تماماً مايمكن أن يترتب على ذلك من عواقب لدى الأمير الذى عزله عن منصبه الكبير منذ قليل .

لم يكن رجال الأمير ، وقد تأكد أن أبراهيم لم يغادر القسطنطينية ، فى حاجة الى كثير ذكاء ليستنتجوا انه قد استجار احد أشراف العاصمة . لكن لعلهم كانوا فى حاجة الى قدر اكبر من الذكاء ، ومن الوقت ايضا ، بل ربما من التحريات كذلك ليحصرُوا استنتاجهم فى اربعة باعيانهم من هؤلاء الأشراف . كان احدهم - وهذا هو المهم - هبيرة بن هاشم نفسه .

لم يتردد الأمير فى القبض على الأشراف الأربعة المتهمين ، أو على الأقل المشكوك فيهم ، بمن فيهم وزير داخلية السابق هبيرة بل اكثر من هذا لم يكرم الأمير الذى لايعنيه الا سلطانه مثنوى هؤلاء الرجال المرموقين ، فقد أودعهم السجن حتى يعترفوا على خصمه المطلوب . لم يعترف الرجال بشيء . لكن عيون الأمير التى لم تتوقف عن البحث ، وانفه الذى لم يكف عن التشمم ، سرعان مااستيقنوا أن طلبتهم قابع فى عقر دار هبيرة ينعم بالجوار والأمان .

هناك - وذلك طبيعى تماماً - أخرج المطلب هبيرة من سجنه الى دار الامارة بالعسكر حيث يقيم ويحكم ، وواجهه بما تأكد لديه من وجود أبراهيم الطائى فى جواره وحمايته ، وامره ان يسلمه إياه فى الحال . اى موقف عصيب ! السيد العربى سليل الالباء الصيد ، ووريث قيمهم ، والحفيظ على اعزافهم ، والقذوة فى ذلك كله للجيل القائم من ابنائهم ... هذا السيد الزعيم المسئول مطالب الآن ان يهدر قيمة من أقدس قيم هؤلاء الآباء ، ويتنكر لعرف من أعرق اعرافهم ، فينكث فى العهد ، ويخون الوعد ويسلم المستجير . اى عار يراد على أن يجلبه على نفسه وولده بل على عشيرته وقبيلته ، بل على طبقته العربية كلها ! واى مصير ينتظره ! حينذاك سيصبح لاشك أحدى المجالس ، واضحوكة الناس ، سيزدرية الرجال ، وتتندربه النساء ، ويتصايح خلفه الاطفال فى الطرقات . سيسلقه

الشعراء بالسنتهم الحداد ، ويتداول فصيحته الرواة بالشفاه والأقلام . ستمتطى فصيحته فتون الابل وصهوات الجياد مابين الاسكندرية واسوان ثم تأخذ طريقها غربا الى افريقية والاندلس وشرقا الى الحجاز والعراق ، وشمالا الى فلسطين والشام وجنوبا الى اليمن . ان هذا مالا يكون ، ولن يكون مهما كانت العاقبة . أدرك الامير - وهو العربي كذلك - كل مدار بخاطر هبيرة الواقف امامه ثابتا شامخا رافضا ان يسلم جاره . غير ان ذلك لم يشفع لهبيرة لدى الأمير الذي تموج الأرض تحت قدميه بالاضطراب ويصر على اقرار النظام بأى ثمن . لم يكن فى جعبة الأمير سوى سهم واحد وأخير ، فليطلقه اذن وير ما يكون . استدعى احد رجاله وأمره أن يشهر سيفه . وفى كلمات قليلة حاسمة خير هبيرة بين الحياة والموت ، فأما ان يتخلى عن جواره لابراهيم الطائي ، وأما أن يتنازل عن رأسه الذى بين كتفيه . لم تهتز شعرة فى جسد هبيرة ولم يطرف له جفن . لقد اختار وفرغ من الاختيار ، فليمت وليبق أغنية للوفاء والشرف فى فم الزمان خيرا من أن يحرص على حياة فانية ، مهما طالت ، فى ظل الخزى والهوان .

ظل هبيرة الرجل عند كلمته . هنالك لم يجرؤ الأمير ، على الرغم من كل شيء ، على أن ينفذ وعيده . قد يستطيع أن يطيح بعنق هبيرة فى غمضة عين ، ولكنه لن يطيق الوقوف أمام ثورة بنى حديج وبنى تجيب ، بل وسائر أبناء الطبقة الحاكمة كلها . سيجد نفسه امام بركان هائج ، وفوق زلزال مائج . فسمح لهبيرة أن ينصرف فى سلام .

كل الاذان فى الفسطاط مرهفة تصيح السمع وهى تتابع أنباء الموقف العصيب ، والتجربة الفريدة . الكل يتساءل : كيف سيتدبر هبيرة ، وماذا سيفعل الأمير ؟ الناس بين متفائل ومتشائم ، وبنو حديج وبنو تجيب يمسون بأعنة خيلهم ، وأيديهم على مقابض سيوفهم . جو مشحون بالتوتر كأنه وتر قوس مشدود

انتظارا لانطلاق السهم . وأخيراً طلع هبيرة من باب القصر ، دار  
الامارة ، منتصب الهامة ، على الرأس ، ترتسم على شفثيه  
ابتسامة يمتزج فيها الأسف مع السرور . وبين التهليل والتكبير ،  
والصياح والهتاف وثب إلى صهوة جواده في خفة الفارس ، ووقار  
السيد ومضى الى داره .

سعيد بن عفير الشاعر المؤرخ ، أول المؤرخ الشاعر ، الذي  
كان يعيش تلك ، وعقل الحقبة من حياة مصر ، ويرصد حوادثها  
بعين يقظي ، وأذن واعية ، وعقل حكيم ليسجلها بعد ذلك شعرا  
تردده الألسن ، وتتناقله الرواة ، ويستشهد به المؤرخون ... سعيد  
بن عفير هذا لم يكن لتفلت تلك التجربة المثيرة من وجدانه وفكره  
وقلمه ، فانطلق يقول مرتفعا بهبيرة بن هاشم ، السموأل المصري ،  
درجات فوق درجة السموال بن عادياء اليهودي الذي كان حينذاك  
مضرب الأمثال في الوفاء :

لعمري لقد أوفى وفاق وفاؤه  
هبيرة في الطائي ، وفاء السموأل  
وقاه المنايا ، إذ أتاه بنفسه  
وقد برقت في عارض متهلل  
فما انفك مجبوسا ومطلب له  
عليه قصيف بالسويد المهول  
فما زاده . الايعاد الا توقرا

وصبرا ، ولم يخشع ولم يتفسكر  
الى أن تجلت عنه أبيض ماجدا  
كريم النشا في المشهد المتدخل  
مرت الأيام ، ونسى الأمير ابراهيم الطائي أو شغلته عنه حوادث  
أهل الحوف وأهل الاسكندرية الجسام ، وانتهز هبيرة بدوره  
الفرصة فيسر للطائي الاقلات من العاصمة في غفلة من رجال  
الأمير وعيونه . ووجد الطائي في الصعيد ملجأ قصيا يستطيع أن  
يكون فيه بمأمن على حياته ، فانطلق اليه هاربا يستمتع بحرية

الحركة بعد أن طال احتباسه في مخبأ جاره النبيل .  
لم ينس الأمير خصمه الطائي فقط ، بل أنه اضطر كذلك الى أن  
يتناسى موقف هبيرة الصليب ازاءه وتحديه العنيد اياه . فلما توالى  
الاضطرابات ، ولم يجد استبدال أصحاب الشرط بعضهم ببعض  
نفعاً في السيطرة على الأمور وفرض الاستقرار ، لم يجد مفراً من  
الاعتراف لهبيرة بكفاءته ، والاقرار بمقدرته ، فأعاده الى منصبه  
الكبير كصاحب الشرط مسئول عن الأمن والاستقرار . بل اننا  
نحس أنه انما ولى احد أبناء عمومة هبيرة على الاسكندرية ترضية  
لهبيرة وتوددا اليه .

\*\*\*

### ٣ - في خدمة الواجب

لم يطل الأمر ، على أى حال ، بالمطلب ولابوزيره هبيرة فقد  
صدر أمر الخليفة بعزل المطلب عن امرة مصر في شوال ١٩٨ هـ .  
واختار بدلا منه أميراً من أفراد أسرته الحاكمة ، اسمه العباس بن  
موسى ، ليوليه على مصر . ويبدو أنه كان يأنس فيه الحزم والشدة  
اللازمين لاقرار الأمور المضطربة في مصر . لم يبادر الأمير  
الجديد الى تسلم مهام منصبه ، وانما أرسل ولده عبدالله نائباً عنه  
الى حين قدومه بنفسه ، وأرسل في صحبته رجلاً يدعى أبا بشر  
الحسن بن لوط الأنصارى . ويبدو أن العباس زود ولده ومساعدته  
بتعليمات مشددة باصطناع أقسى اجراءات الحزم مع المصريين .  
لم يكن اول اجراء لتائب الأمير الجديد ومساعدته هو فقط عزل  
الأمير السابق المطلب بل القبض عليه كذلك وايداعه السجن . أما  
هبيرة صاحب الشرط فكان نصيبه العزل فقط من منصبه الكبير .  
وهنا يبدو أن ابن العباس أخلى المسرح في هذه اللحظة لمساعدته  
الأنصارى ليلعب عليه وحده المهمة الكريهة الملقاة على عاتقهما  
معا .

ان لم يكن هذا الأنصارى فاجراً كأفحش مايكون الفجور فلا بد  
أن يكون أحمق كأغبي مايكون الحمق . ذلك بأنه لم يكد يستقر به

المقام فى مصر حتى راح يتحرش بالجند ويتحداهم المرة بعد المرة . ويبدو أن أولئك الرجال قابلوا ذلك منه بالحلم الكريم مما جراه على أن يخطو خطوة جديدة ليس أكثر من خطرها سوى حماقتها ، ذلك بأنه اوقف صرف اعطيات (مرتبات) هؤلاء الجند . ان من يجرو على مثل ذلك مع الرجال المقاتلين ذوى البأس الشديد يهون عليه ان يأتى ماهو أشد مع المدنيين . هذا ماكان من ذلك الانصارى العجيب ، فقد تحامل على الناس وعسفهم واساء معاملتهم وظلمهم ، وراح ينذرهم بالويل والثبور وعظائم الأمور عندما يصل الأمير نفسه ، العباس بن موسى .

لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه . هذا القانون الطبيعى يصدق على عالم الاحياء وعلى المجتمع الانسانى صدقه على عالم الجوامد . لذلك كان طبيعيا ، بل حتميا ، أن تؤدى سياسة أبى بشر الانصارى المتغترسة المتحدية الظالمة ، بعد شهرين لا أكثر الى انفجار عنيف ضده تحالفت فيه الجماهير مع القوات المسلحة ، فاقتحموا السجن وأخرجوا من غياهبه أميرهم السابق ، المطلب ، وبايعوه بالامارة بالاجماع ، وخلعوا نائب الأمير ومساعداه الأحمق فى منتصف المحرم ١٩٩ هـ .

لم يعترف عبدالله بن العباس ولامساعداه أبوبشر الانصارى بهذا التمرد فمايزال العباس بن موسى هو الأمير الشرعى على مصر ، ولن يفقد شرعيته الا اذا عزله الخليفة الذى اصدر قرار تعيينه . لذلك لم يفكرا فى الرحيل عن مصر منهزمين فاشلين ، وانما صمما على البقاء فى انتظار تطور الأحداث ورد فعل عاصمة الخلافة . لكن كيف يضمنان السلامة فى ذلك الجو المشحون ضدهما بالكراهية والعداء ؟ لم يكن أمامهما سوى استغلال ذلك التقليد العربى النبيل : تقليد الجوار وقد مارساه بحصافة ودهاء لعل الفضل فيهما يرجع الى أبى بشر الانصارى الداهية . ذلك بأن عبد الله بن العباس انطلق فاستجار عباد بن محمد بن حيان أمير مصر الأسبق وصاحب الضربة القاضية التى أخرجت مصر من



قبضة الأمين وألقت بها فى يد المأمون . اما الانصارى فقد تسلل الى جوار المطلب نفسه أمير مصر الجديد لايضمن لنفسه الحماية فى اعلى مستوياتها فحسب ولكن ليصبح ايضا اشد مايكون قربا الى ذلك الامير الذى يضمه له الكيد . ما اشبه الانصارى فى هذا بالحية التى تلتصق بجلد الذى يطعمها ويدفئها لتنهشه فى الوقت المناسب

بعد خمسة أشهر ونصف تحرك العباس بن موسى من مكة الى مصر ليشغل امارتها التى كان المأمون قد أسند اليه منذ سبعة أشهر كاملة وكان طبيعيا ألا يتوجه الى العاصمة المصرية حيث يسيطر المطلب الذى يتمتع بتأييد الجند والجماهير وأن افتقد أعراف الخليفة ولى الأمر ، وانما نزل الحوف ليحصل على معونة سكانه المقاتلين المتمردين فى تحركه العسكرى ضد المطلب من الخارج . وفى نفس الوقت راح يشكل طابورا خامسا يهاجم المطلب من الداخل . وأسند قيادة هذا الطابور الى اثنين من الد أعداء المطلب ، اولهما ابراهيم الطائى الذى كان المطلب يعتزم قتله لولا أن أجاره هبيرة بن هاشم وساعده على الأفلات الى الصعيد . وقد استطاع الطائى هذا أن يعود بعد ذلك الى المطلب فى أمرته الجديدة ويترضاها ، ويصبح واحدا من أعوانه . اما الثانى فلم يكن سوى الانصارى الحية الكامنة فى ملابس المطلب الداخلية ، لابد أن عيون المطلب كانوا على درجة عالية من اليقظة ، اذ لم يلبث المطلب حتى اكتشف وثائق تثبت الاتصال بين هذين الرجلين الذين ظللها بحمايته ومنحهما ثقته وبين العباس بن موسى الذى يعد العدة فى الحوف للانقضاض عليه ، هنالك لم يتردد فى أن ينزل بهما العقاب الذى يستحقانه . ووكل هذه المهمة الى صاحب شرطه المسئول الأول عن الأمن فى البلاد : هبيرة بن هاشم نفسه ، فى حين تكفل هو بأمر العباس الرابض فى بلاد الحوف ، فأرسل من دس له السم فى الطعام - فيما يقال - وفرغ من أمره فى جمادى الآخرة ١٩٩ هـ .

ما أغرب ما تتقلب الأحداث ، وتدور الأيام . هبيرة الذى بسط  
حمايته بالامس على ابراهيم الطائى ، وكان على وشك أن يفقد عنقه  
فى ذلك ، عليه اليوم ان يقتل هذا الطائى . لم يتردد هبيرة فى تنفيذ  
المهمة دون أدنى شعور بالخيانة أو حتى التناقض . لقد أجاره  
كسيد عربى ، لم يكن حينذاك يشغل أى منصب رسمى . أما الآن  
فهو رجل الدولة والمسئول عن الأمن ، فضلا عن خيانة الطائى  
الصريحة . وسار هبيرة الى الطائى على رأس قواته فأجهز عليه .  
أما الأنصارى فكان لهبيرة معه شأن آخر ، اذ لم يشأ أن يقتله بيده  
ولا حتى بيد قواته ، وانما ترك هذه المهمة لخصوم الأنصارى  
القدماء : رجال القوات المسلحة ، فسلطهم عليه ولعله كان فى غنى  
عن تذكيرهم بماضيه معهم ، فقتلوه .

يبدو أن التخلص من العباس بن موسى ، ولو عن طريق دس  
السم له ، قد قوبل من المصريين بارتياح سجله الشعراء ، فى حين  
قوبل مصرع أبى بشر الأنصارى باستنكار الراى العام الذى رأى  
فى ذلك اعتداء صريحا على تقليد الجوار ، وان لم يحمل هبيرة ذلك  
الوزر بل حمله المطلب أمير مصر الذى كان قد منح جواره  
للأنصارى . ومثلما امتدح سعيد بن عفير وفاء هبيرة السموالى  
لجاره الطائى من قبل ، انطلق هذه المرة يهاجم المطلب ويلومه  
لغدره بجاره الأنصارى :

أرى كل جار قد رمى بجواره  
وخان أبا بشر جوار ابن مالك  
أطلب : هلا منعت ابن غادر  
وأديته قبل انسداد المسالك ؟

فيأخذ حبلا من سواك بعزة  
ويمنعه من كل طبل ومالك  
كحبل حوى أو كحبل ابن قحزم  
وثيق العرى للمعصم المماسك

وفى نص آخر لم يبق لنا منه سوى بيت واحد ، بكل أسف يوسع ابن عفير دائرة تشاؤمه وسخطه بحيث يتهم كل القحطانيين من أهل مصر ، لا المطلب فقط ، بخيانة العهد والغدر بالجار .

أخبر بنى قحطان فى مصر أننى

رأيتهم لا يحفظون لهم أصرا

أيا كان الأمر فقد عاد المطلب فكافأ رجله القوى هبيرة بأن ولى ابنه محمدا حاكما على الاسكندرية ثانى مدن مصر وأجملها على الإطلاق .

#### ٤ - الواجب الأخير

كانت متاعب جديدة ماتزال فى انتظار المطلب ، وكان مثيرها فى هذه المرة عبد العزيز الجروى الذى اتخذ من مدينة تنيس ( شرقى موقع دمياط الحالية بقليل على البحر الأبيض المتوسط ) مركزا حصينا له أنطلق يدبر منه الخطط ، ويعبىء القوات بهدف فرض سيطرته على أسفل الأرض ( الدلتا ) . سار السرى بن الحكم على رأس قوات الدولة لاختضاع الجروى والقضاء على خططه . ولكن هذا أفلح فى خداع السرى والقاء القبض عليه ، وحمله اسيرا الى معقله فى تنيس حيث ألقى به فى السجن .

لم يكن المطلب قد افاق بعد من انهزام قواته وأسرقائه السرى حين فوجىء بعبد الله بن موسى قادما من مكة فى المحرم ٢٠٠ هـ ليثأر لأخيه العباس من المطلب الذى كان قد اغتاله بالسسم منذ وقت غير بعيد . كان طبيعيا ان يتحالف عبد الله بن موسى مع الجروى الذى لم يتردد فى المسير معه فى قوات برية ونهرية ضخمة الى الجيزة فى الشهر التالى مباشرة حيث اشتبكوا مع قوات الدولة فى معركة خاسرة انهزم بعدها الجروى الى الدلتا ، فى حين ولى عبد الله الأدبار الى مكة .

أصبح الجروى هو المشكلة الحقيقية التى تؤرق المطلب وتزلزل الأرض تحت قدميه ، فراح يعبىء كل قواه لحسم هذه المشكلة

حسما نهائيا . أحس الجروى بذلك ، وأدرك أنه لن يستطيع مواجهة  
المطلب عسكريا ، فلجأ الى الحيلة . أخرج أسيره السرى من  
محبسه ، واتفق معه على أن يسير الى الفسطاط حيث يزعم كذبا -  
يؤيده الجروى فى الدلتا - انه تلقى أمر الخليفة بتعيينه اميرا على  
مصر ، ويثور بالمطلب ويعزله . ما أن وصل السرى الى الفسطاط  
وأطلق كذبه حتى انضم اليه اتباعه الجند الخراسانيون ، فى حين  
رفض المصريون دعواه ولم يستجيبوا له . ولم يضيع المطلب  
الوقت فبادر بارسال قواته لأخضاع الخراسانيين وزعيمهم  
السرى . لجأ السرى الى داره فى حى الحمراء من الفسطاط  
متحصنا بها ، فى حين انطلقت القوات المصرية تشتبك مع  
الخراسانيين فى معارك متفرقة شملت كل نواحي العاصمة . ونجح  
المصريون فى الوصول الى دار السرى حيث يحتوى ، وضربوا  
حولها حصارا قويا .

كان هناك رجل واحد يستطيع أن يضع حدا لهذا كله ، فيخضع  
الخراسانيين ، ويقتحم على السرى داره المنيعه ، ويعيد الى  
العاصمة امنها واستقرارها . لم يكن ذلك الرجل سوى هبيرة رجل  
الدولة المخلص ، والمستول الكفاء عن الأمن . التقى هبيرة برجال  
السرى فى موقع بعد موقع من الفسطاط . كان القتال محتدما ،  
والخيل تضرب الأرض بسنابكها فيثور الغبار الكثيف يحجب ضوء  
الشمس ويحيل النهار الى ظلمة لا يرى فيها الا السيوف وهى  
تخطف كالبرق فى ايدى الرجال ، وهبيرة القوى الشجاع فى مقدمة  
رجاله ، على صهوة جواده ، وسيفه يلتمع بين السيوف . أعمى  
الغبار الكثيف عينى فارس هبيرة فلم ير الحفرة الكبيرة بين قدميه  
فهوى فيها وهوى معه فارسه الكبير . بادر هبيرة يهم بالنهوض من  
الحفرة الخطرة فوجد نفسه عاجزا عن القيام . لقد كسرت رجله .  
انتبه الخراسانيون الى ذلك الفارس من أهل مصر الذى تردى به  
جواده ولم يستطع النهوض فحفوا اليه ، وفى مثل لمح البصر كانوا  
قد فصلوا رأسه عن جسده بضربة سيف واحدة وهم لا يعلمون فى

ظلمة الغيرة أنهم انما قتلوا هبيرة العظيم . وطاروا الى قائدهم السرى يلقون عند قدميه رأس أخذ الفرسان كبشارة بالنصر المقرب . لم يكد السرى يلقى نظرة على الوجه النبيل المعفر بالتراب ، المخضب بالدماء حتى كاد أن يصعقه هول المفاجأة . انه رأس زميله الكبير ، وصديقة القديم هبيرة بن هاشم الذى ربطت بينهما الحوادث الجسام منذ تشاركا وتحالفا على خلع الأمين والمناداة بالمأمون . أية كارثة ، وأى ثمن فادح يؤديه ليثب الى السلطة !

لم يملك السرى ، وهو المحارب المجرب نفسه من الجزع والهلع وربما من الصراخ والبكاء . وسرعان ما انتقل الخبر الى القوات المتصارعة فى الخارج ، فلم يكن جزعهم - مصريين وخراسانيين - على السواء - بأقل من جزع السرى . أغمد الجميع سيوفهم ، وأدار كل فريق ظهره للآخر راجعا الى مكانه بنفوس صدعها النبا ، وقلوب اثقلها الحزن وعيون تفيض بالدمع .

كانت هذه النهاية المفجعة لهبيرة نهاية فى نفس الوقت للمطلب الذى أيقن انه لم يعد له مكان فى مصر بعد ان انهار السند الشامخ الذى ظل قرابة عامين يستند اليه ، ويعتمد عليه . فطلب الأمان من السرى ، وأسلم اليه الأمر وغادر مصر (أول رمضان ٢٠٠ هـ) ليركب بحر القلزم ( البحر الأحمر ) متخذا طريقه الى مكة المكرمة تتبعه سحابة بعض الشعراء الموجهة .

سعيد بن عفير الشاعر المؤرخ الذى لم يتخلف لحظه عن مسرح الأحداث ، اهتز من الأعماق لمصرع هبيرة المأسوى مثلما اهتز من قبل لوفائه السموالى . قال ييكى ، ويمجده ، ويسجل الموقف الأخير الذى اختتم هبيرة به حياته كرجل دولة أمين ، وفارس عظيم وسيد كريم :

لعمري لقد لاقى هبيرة حتفه

بأفضل ماتلقى الحتوف السوارع

بأنف حمى لم تخالطه ذلة  
وعرض نقى لم تشنه المطامع  
عشية يستكفيه مطلب الذى  
به ضاق ذرعا والمنايا كوارع  
فما انفك يحميه ويجعل نفسه  
له جنة حتى احتوته المصارع  
فلاقى المنايا فوق أجرد سابح  
وفى الكف ماثور من الهند قاطع  
فبينما يخوض الهول من غمراته  
وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا  
تقطر فى أهوية عن جواده  
فصادفه حين من الموت واقع  
فلم أر مقتولا أجل مصابه  
على من يعادى والذين يجامع  
من ابن حديج يوم أعلن نعيه  
وقام به الناس راء وسامع  
فولوا فلولا قد علتهم كآبة  
وكلهم بادی التلهف جازع



## الأدب في معركته

كان العرب يمثلون في المجتمعات التي يفتحونها أرسناتقراطية - السيف والدم ( الجنس ) ويشغلون بالتالى قمة الهرم الاجتماعى . أما قاعدة الهرم فتتكون من الرقيق ، يعلوهم الذميون سكان البلاد الاصليون .

وكان يقوم نتيجة لذلك تناقض طبقى بين العرب وغير العرب ، وبين المسلمين وغير المسلمين ، وبين الاحرار وغير الاحرار . والاسلام النظرى يفتح الطريق أمام الحل السلمى لهذه التناقضات التى ظلت مصدر كل الحركات والتغيرات فى المجتمع الاسلامى . فالرقيق يستطيع أن ينال حريته وغير المسلم يستطيع أن يدخل فى الاسلام ، كما أن الاشتراك فى الايمان بالاسلام يسوى بين المؤمنين بما يلغى ما بينهم من فوارق ليكون منهم طبقة واحدة أشار اليها القرآن فى الآية العاشرة من سورة الحجرات : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفى الآية الثالثة عشرة من السورة نفسها : " أن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وكان المفروض أن يقف المسلمون الجدد - وهم من غير العرب طبعا - على قدم المساواة الكاملة مع المسلمين الاصليين أى العرب . غير أن ذلك لم يتحقق قط اذ ظل العرب متمسكين بعروبيتهم الجنسية كعامل يحفظ عليهم بقاءهم كطبقة مغلقة ( طائفة ) لا يستطيع غيرهم أن يشاركهم اياها .

وكل ما سمحوا به للمسلمين الجدد هو أن ينتسبوا الى القبائل العربية ، التى تتكون الطبقة العربية من مجموعها ، فيحملوا اسمها فى صورة من التبعية تعرف باسم « الولاة » .

ثم أن الدولة رفضت - حرصا على مواردها - أن تسقط عن هؤلاء المسلمين الجدد - أو الموالى - لما تضخم عددهم - الجزية التي كان عليهم بحكم القرآن نفسه ( التوبة : ٢٩ ) أن يدفعوها وهم ذميون . هذا الى أنه أصبح عليهم اداء الزكاة بما هم مسلمون . وهكذا لم يحقق اعتناق الاسلام وضعا طبقيا أفضل للموالى فلاهم دخلوا الطبقة العربية الحاكمة ولاهم بقوا فى طبقتهم التي ورثوا عضويتها ، بل أصبحوا يكونون طبقة قلقة فى المجتمع الجديد بالرغم من أنها كانت طبقة المستقبل ، وبذلك لم يحل اعتناق الاسلام التناقض بين العرب والأجناس الأخرى ، بل اعطاه صورة جديدة وظل هذا التناقض مصدرا لكل حركات الموالى السياسية والاجتماعية والثقافية . وعرفت ، مثلها مثل سائر المجتمعات الاسلامية ، هذا التناقض بين العرب والموالى وماتج عنه من صراع وقد سجلت الروايات صورة نادرة لاحدى محاولات قبض مصر المسلمين لحل هذا التناقض بطريقة فريدة فى بابها . الحرس - بفتح الحاء والراء - قرية مصرية كل مابقى لنا من أخبارها انها من شرقى مصر وأغلب الظن أنها من الاقليم الذى تشغله محافظة الشرقية . دخل سكان هذه القرية الاسلام مع الزمن مثلهم مثل معظم المصريين . ولكن يبدو أنهم كانوا يتمتعون بنشاط خاص ، فقد ظهر منهم فى القرن الثانى - الثالث الهجرى عدد من الشخصيات العلمية . فكان هناك كلب القضاعى الحرسى ( ت ٢٠٧ هـ ) الذى روى عن ، أى تتلمذ على ، الفقيه المصرى الكبير عمرو بن الحارث ( ت ١٤٨ هـ ) ، والقارىء المدنى العظيم نافع ( ت ١٦٩ هـ ) . وكان منهم - وهو أهمهم وأشهرهم - زكريا بن يحيى ( ت ٢٤٢ هـ ) المعروف بكاتب العمرى ، والذى تتلمذ على علماء أجلاء يكفى أن أحدهم العالم المصرى الجليل عبدالله بن وهب ( ت ١٩٧ هـ ) . وقد يكون من المفيد أن نتأمل الاسم الكامل لهذا العالم الحرسى ، وهو : زكريا بن يحيى صالح بن يعقوب . فأن طوله يدل على قدم دخول الاسرة فى الاسلام . هذا

من جهة ، ومن جهة أخرى يلحظ أن اسمه واسم أسلافه هي أسماء أنبياء أو ، بتعبير أدق ، أسماء دينية لا تتعارض مع الاسلام ولكنها تخلو - ربما عن عمد - من الطابع العربي الخالص . كما كان هناك أحمد بن رزق الله بن أبي الجراح ( ت ٢٤٦ هـ ) تلميذ العالم المصرى الكبير يونس بن عبد الاعلى ( ت ٢٦٤ هـ ) . وكان هناك كذلك أبو بكر أحمد بن زكريا بن يحيى ( ت ٢٥٤ هـ ) نجل العالم المذكور أنفا .

كان هؤلاء الحرسيون يمارسون نشاطهم العلمى فى العاصمة - الفسطاط - حيث كان يقيم - فيما يبدو - عدد غير قليل من مواطنيهم ويشكلون جميعا تكوينا متميزا يعرف باسم « أهل الحرس » . ويبدو كذلك أن أهل الحرس هؤلاء - علماء وغيرهم - أصابوا من النجاح والشهرة فى الفسطاط ما نبه اليهم أفراد الطبقة العربية الذين بدعوا يرون فيهم حالة جديدة من حالات الارتقاء الطبقي الذى كان - بما هو حركة اجتماعية مستمرة يهدد وضعهم كطبقة عليا متفردة بالسلطان ، ورأى العرب أن يبادروا الى القضاء على هذا النجاح الجديد الذى تحرزه الطبقة الشعبية . فأخذوا يتحرشون أهل الحرس ، ويؤذونهم وينكرون عليهم حقهم فى التفوق محتجين بأنهم ليسوا عربا ينتمون الى الطبقة الارستقراطية الحاكمة صاحبة الحق فى الاستئثار بكل أنواع التفوق ، ولكنهم قبط أى مصريون ينتمون الى الطبقة الشعبية المحكومة التى ليس لها أى حق فى التمتع بأى نوع من التفوق .

وتزعم حركة اضطهاد أهل الحرس ، أو - فى الاصح - الصراع الطبقي ضدهم ثلاثة من وجوه الطبقة أولهم : هاشم بن عبد الله التجيبى - من قبيلة تجيب القوية المتحضرة ، وهذا هو الاله - أحد ذرية معاوية بن خديج ( ت ٥٢ هـ ) الذى كان من أبرز شخصيات الفتح العربى مثلما كان من أهم زعماء الارستقراطية العربية الفاتحة . وكان هاشم مازال محافظا على وضعه الطبقي الموروث وكان يلى وظائف الدولة الكبرى . وحدث أن عيره ابن

مسروق قاضى مصر ( ١٧٧ - ١٨٤ هـ ) وكان قاضيا جزئيا عنيفا - بأنه ليس من كندة الملوك ، فغضب هاشم غضبا عنيفا وأقسم ألا يحضر أمامه أبدا ، وفوض له أن يحكم بما يشاء فى ماله لمن يتظلم اليه منه . أما الثانى أبو رجب العلاء بن عاصم الخلانى فهو أحد رجال العلم والدين ، ولى القصص بجامع عمرو فى مقابل عشرة دنانير - وهو مبلغ غير صغير حينذاك - فى الشهر . كما كان أمام جامع عمرو ، فلما قدم الامام الشافعى ( ت ٢٠٤ هـ ) مصر سنة ١٩٨ هـ صلى خلفه فى المسجد الجامع فأعجب بصلاته وقال ، « هكذا تكون الصلاة . ما صليت خلف أحد أتم صلاة من أبى رجب ولا أحسن » . ولمنزلة أبى رجب العالية فى المجتمع المصرى استخلفه أحد الأمراء على حكم مصر سنة ١٩٢ هـ الى حين قدومه . أما الثالث فهو أبو الدهمج رياح بن ذوابة التجيبى الكندى الذى كان أحد شيوخ المؤرخين والشاعر المصرى الكبير سعيد بن عفير ( ت ٢٢٦ هـ ) .

هؤلاء الرجال الثلاثة أذن من أقوى القبائل العربية فى مصر وأغناها وأشدّها أرسقراطية وهم أغنياء بالتالى ، ثم أنهم مثقفون ثقافة عالية ، ويتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة . وقد أستاءوا من أولئك الحرسيين النشطين الممتازين الذين أستطاعوا بالعمل والمثابرة أن يحققوا لانفسهم حياة افضل من حياتهم التى بدءوها فى أعماق الطبقة الشعبية الكادحة المحرومة ، ولسنا نشك فى أن الزعماء العرب الثلاثة فى شعورهم العدائى نحو هؤلاء الحرسيين الناجحين أنما كانوا يعكسون أحساس الطبقة الارستقراطية التى ينتمون اليها بخطورة هذه الظاهرة - ظاهرة تمكن أفراد الطبقة الشعبية من تحقيق الارتقاء الطبقي عن طريق العلم أو غيره - على وجودهم كطبقة . ولذلك لم يترددوا فى أن يشنوا باسم طبقتهم ، ودفاعا عن كيانها ومصالحها ، تلك الحرب النفسية القاسية التى لاتستند الى الدين الذى كانوا يعرفونه جيدا فى شىء وأنما تتخذ سندها الوحيد من حتمية الصراع الطبقي ويعد زكريا بن يحيى

الذى سبقت الاشارة اليه خير نموذج للارتقاء الطبقي الذى حققه  
أهل الحرس لانفسهم ، فقد أستطاع أن يرتفع من الحضيض الى  
العلم والسلطة والثراء . وقد جعله ذلك هدفا لنقمة الشاعر المصرى  
العربى الاصيل يحيى الخولانى الذى وصفه بأنه « صار بعد الذل  
للجور يرهب » وأنه « بعد قران العرى أصبح فاكتسى » ، وأنه  
« بعد الحفا والمشى قد صار يركب » .

لم يستطع أهل الحرس الصبر على الاضطهاد ، وكانوا لابد لهم  
من أن يتخذوا اجراء مضادا . أى كان لابد من أن يحلوا هذا  
التناقض بينهم وبين العرب فلجئوا الى زعيمهم أو عميدهم فى  
العاصمة الذى لم يكن سوى زكريا بن يحيى يشكون اليه أنهم  
يؤذون ويظعن فى انسابهم ، ويسألونه حتى متى يصبرون على  
هذا ... ولم يكن زكريا يجهل الموقف ، بل لعله كان قد روى فيه  
طويلا ، ذلك بأنه قدم اليهم اعجب حل يمكن أن يخطر بالبال . فقد  
نصحهم لكى يتخلصوا من اضطهاد العرب بأن يتحولوا الى عرب ؛  
وأكد لهم أنهم يستطيعون تحقيق هذا المستحيل اذا جمعوا مبلغا  
من المال يقدمونه الى قاضى مصر فيسجل لهم سجلا يثبت لهم  
نسبا عربيا . فهل اقترح زكريا على مواطنيه هذا الاجراء العجيب .  
لانه كان مألوفا حينذاك مثلما كان مألوفا فى مجتمعنا المعاصر ان  
تشتري الاسرة لنفسها « حجة » تثبت لها شرف الانتساب الى  
النبي ؟ أو أنه فعل ذلك أطمئنانا الى أماكن اتخاذ هذا الاجراء  
الشاذ فى عهد قاضى مصر الموجود حينذاك والذى كان هو نفسه  
يعمل كاتباً له حتى اشتهر بلقب « كاتب العمرى » كما ذكرنا من  
قبل ؟ وأيا كان الامر فمن كان هذا القاضى ؟

عبدالرحمن بن عبدالله العمرى ، أحد أحفاد عمر بن الخطاب  
الذى ينسب اليه ، فقيه مدنى ملكى - تلميذ مباشر لمالك ( ت ١٧٩ هـ )  
دخل مصر فى صفر ١٨٥ هـ قاضيا عليها من قبل الخليفة  
هارون الرشيد . وكانت له وجهات نظر خاصة فى كثير من وسائل  
الفقه والقضاء سرعان ماراح يطبقها فى مصر . فكان يميل مثلا

الى اتخاذ الشهود بمعنى أن يعين عددا من الافراد العدول تكون كل وظيفتهم هي أداء الشهادة على المتخاصمين . وقد ضرب رقما قياسيا في عدد شهوده فاتخذ مائة شاهد وجعل عليهم رئيسا . ويلحظ انه اختار هؤلاء الشهود من أهل المدينة - بلده - بالذات ، من موالى قریش والانصار وغيرهم . على أن الجديد الذي لم يسبق اليه انه دون أسماء هؤلاء الشهود في سجل خاص وأسقط سائر الناس ، فأصبح ذلك تقليدا متبعا منذ ذلك الحين . ولكي يضمن عدالة الشهود عين الفقيه المصرى الكبير أشهب بن عبدالعزيز ( ت ٢٠٤ هـ ) على مسائله - أى مهمة السؤال عن الشهود والتأكد من خلوهم مما يخل بالثقة في شهادتهم وضم اليه فقيهين مصريين كبيرين ايضا هما : يحيى بن عبدالله بن بكير ( ت ٢٢١ هـ ) ويحيى بن عبدالله بن حرمة . وكان مالك لا يرى أن تشتراط المزمة في الاحباس ( أى المبانى الموقوفة ) ، ولكن تلميذه العمرى خالفه في هذا الرأى قائلا : لولا المزمة ما بقيت الاحباس لاهلها ولذلك عنى العمرى بعمارة هذا النوع من المبانى فكان يقف عليها بنفسه ويجلس مع البنائين أكثر نهاره . وترميمه لمسجد عبدالله بالفسطاط مثال جيد لشغفه بالمبانى الاثرية وحرصه عليها ، مثلما أن القضية التى سجل فيها تجديد هذا المسجد مثال جيد لعقليته القانونية . والعمرى هو أول من عمل تابوت القضاء فى بيت المال لتودع فيه اموال اليتامى ومال من لا وارث له ، وقد أنفق فى بنائها أربعة دنانير فقط . وأخذ لنفسه عددا من الكتاب كانوا جميعا من ذوى الكفاية العلمية ، وكان زكريا بن يحيى من أبرزهم . كما ذكرنا من قبل وكان الفقيهان المصريان عبدالله وهب وأشهب بن عبدالعزيز يحضران مجلسه . وروى عنه بعض علماء مصر . وكان يجلس للناس يقضى بينهم من الغداة الى الليل ، ولذلك وصفه الحارث بن مسكين قاضى مصر ( ت ٢٥٠ هـ ) بأنه « كان شعلة من نار » . ويقال - وهو قول مشكوك فيه الى حد كبير - أن النيل توقف فى سنة من السفين فخرج العمرى الى الرمل ، وبسط يده



ودعا وأبتهل ، فما عاد الا والماء يجرى فى أذنيه .  
على أن ذلك ليس كل شىء بالنسبة الى القاضى العمرى الذى  
لعله كان مزدوج الشخصية فقد كان يتزين ويسرف فى التزين .  
أتاه احدهم بعد قيامه من مجلس حكمه فأذا هو مضطجع وقد  
ترجل ، وصفر يديه وكحل عينيه واتشح بأزار معصفر وأدهن بملاّب  
( على وزن سحاب وهو عطر أو الزعفران ) ، ولا شك فى أن هناك  
علاقة وثيقة بين التجميل وبين كلفه الشديد بفن الغناء . فقد كان  
يشدو باطراف الغناء على مغانى اهل المدينة ، ويبرز كثيرا فى  
مجالسه ولا يتحاشى أن يقول : هذا غنى به ابن سريج ، وهذا غنى  
به الدلال ، وهذا من جيد غناء الغريض . ولم يكن بمصر مسمعة الا  
ركب إليها يسمع غنائها وربما قوم ما انكسر من غنائها ويرى ذلك  
من الدين . ويضيف الراوية الذى دخل عليه فوجده فى كامل زينته  
أنه كان وهو فى حاله تلك يضرب بأصابع يديه بعضها على بعض  
ويقول :

كأنى من تذكر أم عمرو سرت بى قرقف صرف مدام  
( القرقف / الخمر القوية . المدام - بضم الميم : الخمر ) .  
ونستطيع أن نزن هذه التصرفات اذا تصورنا تصدر فى  
مجتمعنا المعاصر عن رجل يكاد منصبه يوازى منصب وزير  
العدل . ومهما بدا ذلك السلوك متناقيا مع ما يجب أن يأخذ  
القاضى نفسه به من الوقار والاتزان فمن الممكن اغتفاره على حال  
من وجهة النظر الفنية الجمالية . على أن الذى لا سبيل الى اغتفاره  
بحال هو تصرفاته المالية المتسمة بالتفريط الشديد وعدم مراعاة  
اي قانون مالى أو أدبى . فقد عهد الى مساعده الكبير يحيى بن  
عبدالله بن بكير بالاشراف على أموال الايتام - أى دورا - ونخيلا ،  
وراح يستغلها ويدفع الى الايتام المستحقين من الارباح ما ينفقونه  
ويخصم ما يصل اليهم من أصل أموالهم . فلما استهلكوا رؤوس  
أموالهم ادعى يحيى الاصول وقال : هى لى . فخصم عند صديقه

ورئيسه القاضي العمرى فقال : لا اراه ظلمكم بشيء هى اموالكم  
استهلكتموها .

وكانت القبائل العربية فى الفسطاط تقيم سباقا بين خيلها فى يوم  
يعرف "يوم الرهان" . وجدت مرة أن تدخلت إحدى القبائل  
المتسابقة "قبيلة يحصب" بطريقة غير مشروعة لتحول نتيجة  
السباق فى صالحها . فغضبت القبيلة الأخرى "قبيلة مراد"  
وأقتلت القبيلتان وأنضم الى كل منهما فريق من الناس حتى كاد  
الموقف يتحول الى حرب أهلية مما اضطر الوالى الى الركوب  
بنفسه الى موقع المعركة والمحاجة بين الفريقين . ثم كلف  
القاضي العمرى بالنظر فى الخلاف والفصل فيه . وكانت يحصب  
تعرف مفتاح القاضي فأتوه بأموال عظيمة . فحكم لهم بجائزة  
السباق التى لم تكن سوى الفرس المسبوق نفسه . وفى ذلك كله ما  
يعطينا الحق فى أن نرتاب فى اهتمامه بترميم المباني الموقوفة  
وتجديد مسجد عبدالله الذى أنفق عليه ألف دينار . وسوف نرى  
كيف هاجم الشعراء القاضي العمرى من هذه الثغرة هجوما  
قاسيا . أما رأى العام فى مصر فلم يجد أوجع فى التعبيرات عن  
ذمة القاضي الفاسدة من أن يطلق عليه أسم « أبى الندى » تشبها  
له بأبى الندى اللص مولى بلى ، الذى خرج سنة ١٩١ - ١٩٢ هـ  
فى نحو من ألف رجل يقطع الطريق بمنطقة ايله ومدين ، واغار على  
قرى الشام ، وبلغ هو وعصابته مبلغا عظيما من النهب والقتل .  
وأيا كان الامر فهذا هو القاضي الذى نصح زكريا بن يحيى  
مواطنيه اهل الحرس بالاعتماد عليه فى الحصول على الجنسية  
العربية الشريفة تخلصا من القبطية التى تجر عليهم اللعنات .  
شكل اهل الحرس لجنة منهم لمباشرة هذه القضية الهامة  
وبدأت اللجنة فجمعت من الحرسىين ستة آلاف دينار - وهو مبلغ  
يدل على ثراء الحرسىين ونجاحهم العملى - ثم توجهت الى  
القاضي العمرى - الذى لاشك فى أن صديق زكريا بن يحيى عميد  
اهل الحرس كان قد فاتحه فى الأمر - وعرضت عليه مطلبها

مشفوعا بالمبلغ الكبير . وبالرغم من حب العمرى الشديد للمال وأستخفافه فإنه لم يجسر على اتخاذ هذه الخطوة بصفة مباشرة . ولذلك نصح أعضاء اللجنة بأن يحصلوا أولا على إذن بذلك من الخليفة نفسه .

ووافق أعضاء اللجنة ، وقرروا السفر الى بغداد ، ولكنهم فضلوا أن يتزودوا بسند قانونى يسهل مهمة اقناع الخليفة بأصدار امره العالى الى قاضى مصر بأخذ الاجراءات اللازمة لاثبات الجنسية العربية لاهل الحرس فماذا يفعلون ؟ ذهب اثنان من أعضاء اللجنة - ولعلهما فعلا من قبل فى محاول سابقة - الى ناسخ يدعى عبدالكريم القراطيسى « كان يضع الخطوط على نظيرها » أى يزورها ، فدفعوا له الف دينار وماكان اكثر الاف الدنانير معهم - فى مقابل ان يزور على لسان قاضى مصر الاسبق المفضل بن فضالة ( ت ١٨١ هـ ) حكما بآثبات أنساب اهل الحرس الى حوتكة بن اسلم بن الحاف بن قضاة . ثم توجهوا الى متولى ديوان المفضل حيث تحفظ الاحكام فدفعوا اليه الف دينار اخرى ليودع ذلك الحكم الديوان . فلما تم لهما ذلك شدا الرحال الى بغداد . وسرعان ما عرفا طريقهما . الى بلاط الخليفة حيث أنفقا مالا عظيما للوصول الى الخليفة وعرض قضيتهم على مسامحة مؤكدين ان هناك قاضيا سابقا قد اصدر حكما رسميا بعروبتهم ولم يكن المفضل هناك ليطعن بالتزوير وفى كل حال فأن هذه الورقة الى جانب الدنانير الذهبية ، كان لها اثر فعال فى نجاح مساعى الرجلين وكتب الخليفة الى قاضى مصر يأمره بالتسجيل لاهل الحرس .

لم يعد أمام العمرى ما يخافه فشمّر عن ساعده وشرع يتخذ الاجراءات الرسمية لمنح أهل الحرس الجنسية العربية . غير أن القاضى المدقق لم يشأ أن يكتفى بحكم زميله . بل أراد أن يقوم بواجب التأكد بنفسه من صحة الدعوى فدعا الحرسيين الى اقامة البيّنة عنده على انسابهم ولم يكن شىء أسهل من ذلك على أهل الحرس فالدنانير الذهبية متوفرة ، والشهود الذين يحبون الدنانير أكثر توفرا وسرعان ما وجد أهل الحرس ، الذين يعرفون دائما الطريق الى ما يريدون - الشهود المناسبين فى أهل الحوف الشرقى . وأهل الشرقية وجماعة من بادية الشام لم يجدوا جميعا مانعا من أن يحضروا الى القسطاط ، ويمثلوا أمام القاضى الجليل ويقسموا ، بالله العظيم أن أهل الحرس عرب خلص كاللبن الصريح . قد نستطيع تفسير اقدام هؤلاء الناس - وهم عرب - على تلك الشهادة الزور بأنهم بداه جفاة لا يعنيههم سوى الدنانير ولكن بم نفس موقف رجل لم يكن عربيا فحسب ولكن من أشرف العرب أى من الطبقة الارستقراطية وكان يملك فندقا فى القسطاط وشغل أبنائه مناصب الدولة الكبرى وكان - الى هذا كله - من نفس قبيله قضاعه التى يريد أهل الحرس الدخول فيها ، وهو حوى بن حوى بن معاذ العذرى ( ت ٢٠٠ هـ ) هل يمكن أن نرى فى موقف حوى اشارة الى اتجاه تقدمى لا يقيم وزنا لهذه العصبية الجنسية التى تشكل مخالفة صريحة للنظرية الاسلامية ؟ ربما . وأيا كان الامر فإنه بالرغم من رفض شهادة حوى لمنازعة كانت بينه وبين صاحب المسائل فإن الشهود الباقين كانوا كافين جدا لاقتناع القاضى

العمري اقتناعا قانونيا بعروبة أهل الحرس وامكان اصداره حكما بذلك ، فأسجل لهم سجلا بتثبيت أنسابهم الى حوتكه .  
لقد وقعت المعجزة ، وتحقق المستحيل ، وأصبح الفلاحون المصريون - القبط - عربا ، ومن قضاعه . واخيرا أستطاع اهل الحرس أن يتخلصوا من ماضيهم الطبقي اللعين الذي ظل يطاردهم كالشبح . وأن لهم أن يتربعوا مع السادة العرب على قمة الهرم ، يتحدثون معهم في مهام الامور ويتبادلون معهم العلاقات المختلفة ، ويلقون في خلال ذلك بنظرات التعالي والزهو على زملائهم السابقين الذين مازالوا يرزحون عند القاعدة . آه ! ولن يستطيع هاشم بن حديج ، ولا أبو رجب الخولاني ولا أبو الدهمج بعد اليوم أن يتجرشوا بهم أو يؤذوهم أو يعيروهم بأصلهم القبطي الذي أفلحوا في أن يبتروه كما يبتز الذنب . لقد تساوت الرؤوس . صحيح أن الناس - بعض الناس - سيظلون يذكرون الماضي زمنا ، ولكنهم لن يلبثوا حتى ينسوا ، بل لن يلبثوا حتى يزولوا ولا يعود أحد يعرف سوى ان اهل الحرس عرب اقحاح من قضاعه . ياسلام ! والفضل لمن ؟ لصديقهم العزيز القاضي العمري - بعد الدنانير طبعاً - فلأزموه وأحاطوا به يتقدمهم عميدهم زكريا بن يحيى يغدون عليه اذا غدا ويروحون اذا راح ، وهم يرفلون في نسبهم العربي الجديد ، ويزهون بجنسيتهم الجديدة التي تتلأأ على هاماتهم كالتيجان .

لما لم يكن اعتناق أهل الحرس الاسلام ونجاحهم في ظل النظام الجديد كافيا لحل التناقض بينهم وبين العرب بل على العكس أدى الى قيام تناقض جديد أشد حدة ، فقد اضطروا الى ذلك الحل الشاذ لعلمهم يتخلصون من هذا التناقض ويحصلون على الاستقرار الاجتماعي والطبائنية النفسية . غير أن هذا الحل الجديد قد أدى بدوره الى تناقض جديد فقد كان يشكل سابقة شديدة الخطورة على الطبقة العربية يؤدي السبكوت عليها الى فتح الباب أمام تكرارها الى مالا نهاية مما يؤدي بالضرورة الى اختفاء العرب كطبقة آخر

الامر . ولذلك هبت الطبقة العربية ، وقد أصابها الذعر ، تهاجم  
القاضي العمرى وأهل الحرس وزعيمهم زكرياء بن يحيى ، وتعارض  
الحكم الصادر وتعمل كل ما تستطيع لوقف تنفيذه ، ولعب الأدب  
دورا بارزا في المعركة ، فلمع ثلاثة من الشعراء المصريين من  
ذوى الاصل العربى هم : يحيى الخولانى ، معلى الطائى ، طاهر  
القيسى . ونستطيع أن نحس الذعر الذى أصاب العرب فى صيحة  
يحيى الخولانى :

الاقم فأنذب العربا      وبك الدين والحسبا  
ولاتنك تنعى العدل      لما بان فاغتربا  
كما نستطيع أن نستشعر دهشة العرب ازاء هذا التصرف الجرىء  
فى قول يحيى أيضا .

ومن أعجب الاشياء أن عصابة  
من القبط فىنا أصبحوا قد تعربوا  
وقالوا : أبونا حوتك ، وأبوهم  
من القبط عالج حبله متذبذب  
وجاءوا بهاجلاف من الخوف فادعوا  
بأنهم منهم سفاها وأجلبوا  
اللعن الرحمن من كان راضيا  
بهم رغما مادامت الشمس تغرب  
وكان طبيعيا أن يركز الشعراء هجومهم على القاضي العمرى سبب  
البلية كلها فأنطلقوا يهجونه ويعددون عيوبه . قال يحيى الخولانى يصف  
ركوبه لسماع الغناء الذى كان يصاحبه موكب من أهل الحرس :  
مر . بنا راكب على فرس  
يامن رأى هريدا على فرس  
قد كشف الخف من ضلالتة  
فنى عصابة من مسالم الحرس  
يقدمه خالد ويتبعه  
لسوط قران الكلبين فى مرس



فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل  
أبو الندى غدا مسرعا الى عرس  
كيما يرى قينة ذكرت  
تشددو بصوت يخال كالجرس  
أصبح فى المخزيات منغمسا  
وليس فى غيرها بمنغمس  
وقال يحيى أيضا يذكر شغفه بالغناء والموسيقا الى جانب تعاطيه الخمر :

لقد أحدث قاضى السوء  
فى فسطاطنا عجبا  
يظل نهاره يقضى بغير  
العدل منتصبيا  
ويسهر ليله لسما  
عه القينات والطربا  
ويشربها معتقة  
عقارا تشبه الذهبا  
ويعجبه سماع العو  
د والمزمار ياعجبا  
فيا للناس من قاض  
يحب اللهو واللعبا  
وقال معلى الطائى يسخر من تظاهره بالتقوى ، ويصفه بالظلم  
واللصوصية ويذكر شغفه بالغناء ويسخر منه ويحرض على اغتياله

كم كم تطول فى قنراتك  
والجور يضحك من صلاتك  
تقضى نهارك باللهوى  
وتبيت بين مغنياتك  
ليت الثلاثين التى تجزى  
تقوم بمسمعاتك  
فاشرب على صرف الزمان

بما انشيت من الحوائك  
 أن كنت قد الحقتهم عربا  
 فزوجهم بناتك  
 فكشفن بما أتيت  
 صدور قوم من مساتك  
 وكأننى بمنية تسعى  
 اليك بكف فاتك  
 أفقرته من ماله  
 بقضية ، أو لم يؤاتك  
 لا تعجلن أبا الندى  
 حتى تصير الى وفاتك  
 أن المقامع تطلقن  
 من الجحيم الى مماتك  
 بل لو ملكت لسان أكثم  
 ما وصلت الى صفاتك

ولم يكن بد من أن يمد الشعراء هجومهم على القاضى العمرى حتى  
 يتناول أهل الحرس ومعاونيه فى القضاء . وقد وصفوهم أساسا بأكل  
 أموال اليتامى  
 قال يحيى الخولانى : -

كم فقير كان قد موله  
 بالمواريث التى كان منح  
 زكريا وكبيش منهم  
 والمدينيون أصحاب البلح  
 فافسادوا الدور فضلا بعدما  
 كلب الفقر عليهم والح  
 كم يتيم قد خسوا أمواله  
 وشهيد عادل كان جرح  
 وقال يحيى أيضا يهجو العمرى ويذكر أصحابه :  
 تصير أموال اليتامى جوائز  
 لأصحابه حتى استقلوا وأتربوا

كبيش ، وطلق والقريزى منهم  
وخالد ، والجعدى ذو الفقه أشهب  
وما ابن بكير دونهم ، وسراقه  
وسابق لاتنساه ذاك المعذب  
وفى حكم ، والمطرفى عجيبه  
وما إن أبو يعقوب عنها مغيب  
وفى زكريا أية فأعجبوا لها  
فقد صبار بعد الذل للجود يرهب  
وبعد قران العمر أصبح فأكتسى  
وبعد الحفا والمشى قد صار يركب  
وغير الالى عدت ممن نسيته  
رجال كثير منهم يتعجب  
وكان نصيب حوى العذرى الذى خان طبقته أن قال فيه يحيى  
الخلوانى :

ياليت أم حوى لم تلد ذكرا  
أوليت أن حويا كان ذا خرس  
كسا قضاة عارا فى شهادته  
لله در حوى شاهد الحرس  
شهادة رجعت ، لو أنها قبلت  
لألجق الزور منها العير بالفرس

هذه هى أهم ، أن لم تكن كل ، الاشعار التى بقيت لنا عن هذه المرحلة من تلك  
المعركة الطبقة النادرة التى كانت الفسطاط ميدانا لها فى التسعينات من القرن  
الثانى ، ولسنا نشك فى أن هذه الابيات التى سجلها صاحب « الولاة والقضاة »  
ليست سوى نماذج مختاره من شعر كثير جدا القى به فى أتون المعركة حينذاك .  
ويلفت النظر أن الشاعر المصرى الكبير سعد بن عفير ( ت ٢٢٦ هـ ) ، الذى  
كان شاعر الطبقة العربية الاول والذى وقف شعره على تأييدها والتغنى بقيمها -  
والفخر بها ، قد اخذ الى الصمت فى المعركة الحاضرة ولسنا نجد تفسيراً لذلك  
سوى دقة موقفه فهو من أصحاب القاضى العمرى وخاصته مثلما هو عربى .  
ولذلك كان لا مفر له اذا تكلم من أن يضحى أما بطبقته وأما بصديقه العزيز .  
فأثر الصمت ليحتفظ بهما كليهما ثم اتنا نتساءل : هل لزم اهل الحرس الصمت  
المطلق فى هذا الجانب القولى من المعركة ؟ أو لم يكن لهم شعراء يتبنون

قَضِيَّتِهِمْ وَيَدَافِعُونَ عَنْ مَوْقِفِهِمْ ؟ أَو لَمْ يَسْتَطِيعُوا حَتَّى أَنْ يَشْتَرُوا بَعْضَ الشُّعْرَاءِ  
بِدَنَانِيرِهِمُ الطَّائِلَةَ الَّتِي كَانَتْ تَصْنَعُ الْمَعْجَزَاتِ ؟ نَحْنُ نَرْجِعُ أَنْ شَعَرْنَا مَا لَمْ يَقُلْ  
فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ دِفَاعًا عَنْ أَهْلِ الْحَرَسِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الشُّعْرَ كَانَ يَنْتَمِي طَبَقِيًّا إِلَى  
الْعَرَبِ بِمَا هُمْ أَصْحَابُ الطَّبَقَةِ الْحَاكِمَةِ السَّائِدَةِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْطَى وَتَمْنَعُ  
وَالَّتِي تَصْطَنَعُ التَّقَالِيدَ السُّلُوكِيَّةَ الَّتِي كَانَ الشُّعْرُ كَفَنٍ يَتَغَتَّى بِهَا عَلَى أَنَّهَا مِثْلُ  
عَلِيٍّ ، هَذَا إِلَى أَنَّ الشُّعْرَ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ التَّارِيخِيَّةِ أَنْ يَتَصَوَّرَ  
أَنْ يَتَّخِذَ مَوْقِفَ الدِّفَاعِ أَوْ حَتَّى الْعُطْفِ عَلَى الطَّبَقَةِ الشَّعْبِيَّةِ الَّتِي كَانَ أَفْرَادُهَا  
يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ " لِأَنَاسٍ " فِي حِينِ أَنَّ الْمَوَالِي " أَشْبَاهُ النَّاسِ " أَمَّا الْعَرَبُ فَهُمْ  
" النَّاسُ " .

وَأَيَّا كَانَ الْأَمْرَ فَلَنَوَاصِلِ السَّيْرِ مَعَ الْمَعْرَكَةِ .

بَلَغَ الْقَاضِي الْعَمْرِيُّ فِي مَوْقِفِهِ مِنْ أَهْلِ الْحَرَسِ ذُرْوَةَ الْأَسْتِخْفَافِ بِالقَانُونِ  
وَالسُّتْغْلَالِ النُّفُوزِ ؛ وَاسْأَلْهُ اسْتِعْمَالَ السُّلْطَةِ وَاصْبَحَ لِأَبَدٍ مِنْ وَضْعٍ حَدٍ لِحُكْمِ هَذَا  
الْقَاضِي الَّذِي قَضَى عَلَى الثِّقَةِ فِي الْقَانُونِ ، وَشَوَّهَ الْعَدَالََةَ ، وَجَعَلَ الطَّرِيقَ إِلَى  
الْحَقُوقِ مَلْتَوِيًّا قَذْرًا مَظْلَمًا . وَاخَذَ الْمَصْرِيُّونَ يَفْكُرُونَ فِي الْعَمَلِ عَلَى عِزْلِهِ . وَلَمَّا  
كَانَ الْخَلِيفَةُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ سُلْطَةَ تَعْيِينِ الْقَاضِي وَعِزْلِهِ فَقَدْ كَانَ عَلَى  
الْمَصْرِيِّينَ الْإِتِّصَالَ بِهِ وَعَرْضَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ وَلَكِنْ مِنْ يَقُومُ بِذَلِكَ ؟ مِنْ يَلْقَى الْجَرَسَ  
فِي رَقَبَةِ الْقُطْ ؟ مَنْ يَذْهَبُ إِلَى الْخَلِيفَةِ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَلِيفَةُ - لِيَقُولَ : إِنْ أَحَدُ  
رِجَالِ دَوْلَتِكَ الرَّجُلِ الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ اخْتِيَارُكَ لِإِقَامَةِ الْعَدْلِ فِينَا رَجُلٌ فَاسِدٌ مُتَعَفِّنٌ  
مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ لَا تَدَقُّقُ فِي اخْتِيَارِ الرِّجَالِ ؟

تَطَوَّعَ الْقُرَاءُ أَيُّ الْعُلَمَاءِ بِالْقُرْآنِ وَحِفَافِهِ ، لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمَغَامِرَةِ الْمَجْهُولَةِ  
الْعَوَاقِبِ فَخَرَجَ نَفَرٌ مِنْهُمْ " اِحْتَسِبُوا فِي خُرُوجِهِمْ إِلَى هَارُونَ " أَيُّ وَضِعُوا  
أَرْوَاحَهُمْ عَلَى أَكْفِهِمْ ، وَشَكُوا إِلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَمْرِيُّ فِيهِمْ . وَبَدَلًا مِنْ أَنْ  
يَأْمُرَ الْخَلِيفَةُ بِالتَّحْقِيقِ فِي الشُّكْوَى قَالَ : أَنْظِرُوا فِي الدِّيْوَانِ كَمْ لِي مِنْ وَالٍ مِنْ  
وَلَدِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَفَحَصَ الْمَوْضُفُونَ السُّجُلَاتِ فَلَمْ يَجِدُوا أَحَدًا  
يَعْمَلُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ مِنْ ذَوِيَّةِ عَمْرِ سِوَى هَذَا الْقَاضِي الْمَشْكُورِ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنْ  
هَارُونَ كَانَ عَلَى عِلْمٍ بِصِلَابَةِ عَمْرِ فِي الْحَقِّ وَشِدَّتِهِ مَعَ الْمُنْحَرِفِينَ حَتَّى أَنَّهُ أَقَامَ  
الْحَدَّ عَلَى ابْنِهِ نَفْسَهُ لَمَّا شَرِبَ الْخَمْرَ بِمِصْرٍ وَأَنَّهُ كَانَ يَقِيمُهُ عَلَى حَفِيدِهِ هَذَا لَوْ  
أَدْرَكَهُ .. بِالرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ اتَّخَذَ هَارُونَ إِزَاءَ الْمَصْلُحَةِ الْعَامَةِ مَوْقِفًا عَاطِفِيًّا تَمَامًا ،  
وَقَرَّرَ كُنُوعَ مِنَ الْوَفَاءِ لِذِكْرِ عَمْرِ الْعَظِيمِ إِنْ بَقِيَ عَلَى الْقَاضِي الْفَاسِدِ فِي  
مَنْصِبِهِ ، وَصَاحَ بِالْقُرَاءِ الْمَصْرِيِّينَ : انْصَرِفُوا ، فَوَاللَّهِ لَا عِزْلَتَهُ أَبَدًا .

تخطمت ارادة الجماهير على صخرة ذلك القاضى المنحرف  
الذى زاده هذا النصر أمعانا فى انحرافه . على أن هارون لم يلبث  
حتى مات فى جمادى الاولى ١٩٣ هـ ليخلفه أبنه محمد الامين .  
ولما كان الامين يفضل أنفاق وقته فى المتع على أنفاقه فى معالجه  
شئون . الحكم فقد فوض أموره الى الفضل بن الربيع ( ت ٢٠٨ هـ )  
حاجب والده الرشيد ووزيره . وترامت سيرة القاضى العمرى  
الشاذه الى الوزير الجاد ، ولعل المصريين واصلوا السعى لديه  
فلم يتردد فى استصدار مرسوم بعزله . وصدر المرسوم بعد سنه  
كامله من موت الرشيد ( جمادى الاول ١٩٤ هـ ) . وحمله من  
بغداد الى مصر موظف خاص . ولم يكد ذلك الرسول يعلن النبأ فى  
مسجد مصر الجامع حتى عمت موجه هائله من الفرح ، وتكاثف  
الناس حوله يدعون ويثنون ، ويهللون ويكبرون ، فقد تخلصوا أخيرا  
بعد تسع سنوات كامله وشهرين اثنين من القاضى الذى عبث بهم  
وبحقوقهم ولم يتمالك أحدهم نفسه فقال - ربما من أبيات أكثر :

بنعمة الله ورأى الفضل

نحى عن الحكم عدو العدل

هذا سوار لرسول العزل

ولكن أغلب الظن أن هذا السوار لم يتجاوز نطاق الوعد  
الشعرى . وأيا كان الامر فبهذا يبدأ الفصل الاخير من المهزله  
التي لعب بطولتها القاضى العمرى .

من المفارقات ان قاضى مصر الجديد ، هاشم بن أبى بكر  
البكرى ( ت ١٩٦ هـ ) ، كان من ذرية أبى بكر الصديق . ولاشك  
فى أنه كان يعرف كل شىء ، بل لعله كان مزودا بتعليمات معينه .  
وقد بادر أهل مصر الى الالتفاف به ، وأطلاعه على كل مافعل  
القاضى العمرى وأعوانه ، وطالبوه بأن يرد اليهم حقوقهم المسلوبة  
. وتزعم هذه الحركه الانتقاميه أبو رجب العلاء بن عاصم الذى  
أشار على القاضى الجديد بالقبض على سلفه وأعوانه وحبسهم  
والتحقيق معهم . ولم يتردد القاضى البكرى لحظه ، فقبض على

القاضى العمرى ، وسجنه وقيده وطالبه بما ضار اليه من الاموال والاقواف وأخذ البكرى بما زعمه المصريون من أن جملة ما اكتسبه العمرى فى فترة ولايته القضاء عليهم مائه الف ( دينار طبعا ) ، فطالبه بها . كما تتبع البكرى أصحاب العمرى كلهم وسجنهم . وأسقط كل من شهد لاهل الحرس فلم يرجع أحد منهم عند أحد من القضاء . وكان نصيب يحيى بن عبد الله بكير من هذه الاجراءات التطهيرية كبيرا . فقد بادر اليتامى الى القاضى الجديد يشكون اليه احتياله على أموالهم وأستهلاكه أياها فأخذه بالحساب ، فأنكر ، فأمر به فربط على عمود فى المسجد الجامع مقابل لباب أسرائيل ، ومناد ينادى : « هذا جزاء كل خائن » . وظل على ذلك أياما لا يحل زباطه الا وقت كل صلاه . ولا بد أن بكيرا كان يتمتع بقدرة كبيرة على الاحتمال ، اذ انه لم يقر بشيء بالرغم من هذا العذاب المهين ولم يستطع البكرى أن يصل منه الى درهم واحد ، فلما يئس منه خلى عنه .

استطاع القاضى العمرى أن يجد شخصا واحدا على الاقل يقف الى جانبه منذ أن بدأت أيامه السيئه ، ذلك هو عبد العزيز بن مطرف المطرفى الذى كان يرأس فرقة الشهود التى كونها من المدنيين وغيرهم ، والذى تناوله يحيى الخولانى بالهجاء فيمن هجا من أصحاب العمرى . وقف المطرفى الى جانب صديقه فى محنته ، فقام بأمره وضمن عنه مالا عظيما للبكرى . على أن البكرى لم يستطع أن ينال شيئا من المبالغ الطائلة التى أدين بها العمرى لا لانه كان مصرا على عدم الدفع فحسب ، ولكن كذلك لانه لم يكن له مال بمصر ، فقد كان رجلا بعيد النظر يحسب حساب ذلك اليوم ويعلم أنه سيجىء حتما ، ولذلك سبق الى تهريب كل أمواله الى مدين ، إحدى مدن الحجاز على ساحل البحر الاحمر . فلما وقعت الواقعة شرع فى تنفيذ الخطة المرسومة ، فعمل على الهرب من السجن ومن مصر كلها الى حيث أمواله . وقد أفلح فى أن يفلت من السجن ويهرب . وأن لم يكن ذلك قد تيسر يفضل أصدقاء له لم



يتخلوا عنه ، فلا بد أنه بفضل أوفى الاصدقاء : الدنانير . وغاز  
هربه خصومه الذين كانوا يمنون أنفسهم بالتشفى منه غيظا  
أنعكس فى شعر الشعراء . وقال يحيى الخولانى :

هرب الخائن ليلا فجنح      وأتى أمرا قبيحا فافتضح  
هارب تحمله ناجية      يصل الادلاج عدوا بالروح  
أما طاهر القيسى ، وهو ثالث الشعراء الذين ذكرنا من قبل أنهم  
لمعوا فى قضية أهل الحرس ، فقد بقيت لنا أبيات قليلة من قصيده  
يبدو أنها كانت كبيرة قالها فى مدح أبى رجب العلاء بن عاصم  
الذى تزعم الصراع ضد أهل الحرس أولا ثم تزعم حملة الكراهية  
والانتقام من القاضى العمرى ثانيا ، قال طاهر يذكر كيف أن أبى  
رجب هو الذى أضطر أبى الندى - أى القاضى العمرى - الى  
الفرار :

ولقد كسوت أبى الندى بفعاله      حربا يلوح قناعة المتقشب  
وزخمته لما تخمط زحمة      ضاقت عليه بها العراق ويثرب  
ونجا لخوفك هاربا بخزاية      وأخو الخزايه والشرارة يغلب  
وصل العمرى الى مدين حيث أحتمل أمواله ، واتفق مع مجموعه  
من رجال البادية على أن يخفروه فى رحلته . ثم سار يقطع شبه  
الجزيرة من شمالها متجها نحو الشرق - وربما الى العراق - يتبعه  
هؤلاء الرجال . فلما وصل الى فيد ، شمالى شرق شبه الجزيرة ،  
خرج عليه جماعه من قبيلتى اسد وطى فأوقعوا به وأخذوا جميع  
ماحواه . ولم يغن عنه حراسه المأجورون شيئا ، كما لم يستطع هو  
أن يفعل أكثر من أن يشتري جلده بكل مامعه من هؤلاء البدو قطاع  
الطريق « فما تخلص منهم الا بحشاشة نفسه » . وهكذا أخذت  
الزوابع المال الذى جاءت به الريح . ووصل النبأ الى مصر ، ورأى  
الناس فى ذلك انتقاما الهيا عادلا . وسجل الشعر شماتة الناس .  
قال يحيى الخولانى من قصيده طويله :

أن يكن أفلت منا سالما      يوم ولى مسرعا حين هرب  
فلقد وافى بفيد عصبية      يسعرون الحرب حتى تلتهب

وغسل المصريون أيديهم من القاضى العجيب ، والتفتوا ليزيلوا  
أهم أثر تركه بينهم وهو قضيه أهل الحرس .  
بما أن المرسوم لايلغيه إلا مرسوم مثله فقد كان لابد من  
أستصدار مرسوم جديد يلغى المرسوم السابق الذى منح أهل  
الحرس حق التمتع بالجنسية العربية . وأخذ الزغيمان العربيان أبو  
رحب العلاء بن عاصم وهاشم بن عبد الله التجيبى هذه المهمة على  
عاتقهما . وكانت الظروف مواتية تماما ، فالخليفة الرشيد صاحب  
المرسوم الاول قد مات . والخليفة الجديد لايعنيه التفكير فى مثل  
هذه الامور . ووزيره الفضل بن الربيع قد أثبت أنه رجل حازم

منصف والقاضى العمرى قد ذهب الى غير رجعة . والقاضى الجديد قاض نظيف حاسم يريد أن يفعل مايسطيع لازالة آثار سلفه البغيضة حتى يعيد الى القانون هيئته والى العدالة قدسيتها .

قام أبو رجب وهاشم بن عبد الله بتشكيل وفد مصرى يسافر الى بغداد ويحصل على المرسوم المطلوب . ووصل الوفد الى بلاط الخليفة ، وذكروا ما فعل العمرى فى أهل الحرس ، وأنه الحقهم بالعرب ، ونسبهم الى حوتكه بن أسلم بن الحاف بن قضاة ، واقتنع المسئولون بفساد هذا الحكم وعدالة مطلب الوفد المصرى فكتب الخليفة الى قاضى مصر بكتاب يقرر فيه مبدأ عاما هو « أنه لا يمنح أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب » ويأمره فيما يتعلق بأهل الحرس « أن يردهم الى ماكانوا من أنسابهم » . فرجع الوفد بذلك .

لم يكن كتاب الخليفة الى القاضى البكرى سوى وثيقة النصر للطبقة العربيه فى المعركة . وكان على القاضى أن يعلن المتخاصمين ويجلس للنظر فى القضية . ولكن اذا كان القاضى العمرى لم يصدر حكمه باثبات الجنسية العربيه لأهل الحرس الا بعد أن شهد بذلك لديه شهود ، فقد كان على القاضى البكرى كذلك الا يصدر الحكم بأن أهل الحرس ليسوا عربا بل قبط أى مصريون الا بعد أن يشهد بذلك شهود واذا كان الشهود فى المرة الاولى مجموعة من البدو المرتزقة فأن الشهود هذه المرة كانوا قوما من أهل القناعه والعداله يكفى أن كان من بينهم الى جانب عبد الله بن وهب ، وسعيد بن عفير اللذين مر ذكرهما - النسابة ، الاخبارى ، المؤرخ المحدث الذى روى عنه البخارى : سعيد بن مريم ( ت ٢٢٤ هـ ) .

نستطيع أن نتصور مسجد مصر الجامع ( جامع عمرو ) وقد غص بالجماهير المتطلعه من سكان القسطنطين والقاضى البكرى فى مجلسه يحيط به كتابه ، وبين يديه قد مثل الزعماء من العرب ومن

أهل الحرس . وفتح القاضي الجلسة ، وعرض القضية وطالب كلا من الطرفين بالدليل على دعواه . أما أهل الحرس فقد قدموا إليه الحكم الذي أصدره سلفه العمرى بعروبتهم . وأما العرب فقد تركوا الأمر للشهود الذين أجمعوا على « أن أهل الحرس من القبط ، وأن العمرى قضى فيهم بجور » . فنقض البكرى قضية العمرى فيهم ، وأشهد على قضائه بردهم إلى أصلهم من القبط ، وأخرج من تحت مصلاه مقراضا كان يخفيه لهذا الغرض فقطع حكم القاضي العمرى وهو يقول لأهل الحرس الذين يشهدون أنهيار كفاحهم ويتجرعون كأس الهزيمة المرة : « العرب لا يحتاجون إلى كتاب من قاض . أن كنتم عربا فليس ينازعكم أحد » . ولسنا نستبعد أن الشاعر معلى الطائى قد أنفجر في نفس هذه اللحظة يصرخ بأعلى صوته بتلك الأبيات القاسية :

يا بنى البظراء موتوا كمدا  
لو أراد الله أن يجعلكم  
لكن الرحمن قد صيركم  
كيف ياقبط تكونوا عربا  
وأسخنوا عينا بتخريق السجل  
من بنى العباس طرا لفعل  
قبط مصر ، ومن القبط سفل  
ومريس أصلكم شر الجيل ؟  
أما زميله يحيى الخولانى فقد وجد من السعادة ما أوحى إليه قصيدة راقصة تتضمن أقدم مانعرف من شعر مصرى فى وصف الخمر . قال :

أشكروا الله على أحسانه  
رجع القبط إلى أصلهم  
ودنانير رشوها قاضيا  
أخذ الأموال منهم خدعة  
أبلغ البكرى عنى أنه  
قد أemat الجور فينا والرشا  
أنه قد كان يقضى بالهوى  
وإذا يخلو حساها مزه  
لم يعن عاصرها فى كرمها  
فله الحمد كثيرا والرغب  
بعد خزى طوقوه وتعجب  
جائرا قد كان فينا يغتصب  
وتولى عنهم ثم هرب  
عادل فى الحكم فراج الكرب  
وأشاع العدل فينا فرتب  
ويبيع الحكم جورا ويهب  
مثل عين الديك من ماء العنب  
بسوى القطف وغمزا بالركب

فأنت كالشمس الا أنها كسيت في دنتها لون ذهب  
ماكفته رشوة ظاهرة وقضايا جوركم فيها عجب  
أن أتى أعظم ما يأتى به أحد أن صير القبط. عرب  
ولم ينس طاهر القيسى أن يشيد بالدور الهام الذى لعبه أبو  
رحب العلاء بن عاصم فى الوصول الى هذه النتيجة العظيمة فقال :  
ولقد قمعت بنى الخبائث عندما راموا العلا وتحوتكوا وتعربوا  
فرددتهم قبطا الى آبائهم ونسبب أصلهم الذى قد غيبوا  
وتركتهم مثلا لكل ملصق نسبا اذا التقت المحافل يضرب  
اما بعد - فهكذا انتهت معركة من معارك الصراع الطبقي فى  
مصر فى القرن الثانى للهجرة ، هذا الصراع الذى كان نتيجة  
حتمية للتناقض الطبقي الحاد فى المجتمع المصرى حينذاك ،  
والذى كان يدور فى حرية تامة بحيث يترك للأطراف المتصارعة أن  
تلجأ الى كل الوسائل وتستعمل كل الاسلحة التى تقدر عليها ،  
والذى انتهى آخر الامر الى نتيجته الطبيعية المتفق مع قوانين  
البقاء ، فقد تنازل كل من الطرفين عما لا بد من التنازل عنه لانه لم  
يعد يتفق مع متطلبات البقاء التى فرضها الاسلام فتنازل القبطى -  
أى المصرى - عن لغته ودينه ، وتنازل العربى عن عرويته الجنسية  
وبداوته والتقى الاثنان معا فى منتصف الطريق حيث اختلطا  
وأندمجا وفنى كل منهما فى صاحبه ليصنعا كائنا حيا جديدا  
صالحا للبقاء فى البيئة الجديدة لانه يتمتع بالقدرة على الاستجابة  
الناجحة لشروطها الجديدة ، ذلك هو المصرى المسلم أى الشكل  
المتطور للانسان المصرى الذى كان عليه أن يواصل حمل رسالة  
الحياة بمفهومها المصرى فى الطريق الجديد الذى شقه الاسلام  
أمام التطور الانسانى .

لم تكن قضيه أهل الحرس ( ١٨٥ - ١٩٤ هـ ) الحالة الوحيدة  
ولا الاولى ولا الاخيره من حالات الصراع الطبقي فى المجتمع

المصري الاسلامي المبكر ، فهي في الحق ليست سوى حلقة من سلسلة طويلة متكاملة تكون في مجموعها حركة تاريخية كانت تحدث كنتيجة حتمية للتناقض بين العرب والاجناس الاخرى . ولم تكن أصداء هذه المعركة قد تلاشت بعد حين تفجرت في الميدان قنبلة جديدة في صورهِ قصيدة هامة لشاعر مصري تناول فيها بالهجاء اللاذع والسخرية الاليمه عددا من هؤلاء الرجال ذوي الاصل المصري الذين أستطاعوا أن ينجحوا اجتماعيا حين اعتنقوا الاسلام ، وأشتغلوا بالعلم وتفوقوا فيه ، وشغلوا المناصب القضائية الهامة ، وأصبحوا من ذوي النفوذ والسلطان بعد أن كانوا هم أو أسرهم يمارسون الاعمال الوضيعة .

واذا كان الارتقاء الطبقي هو السبب العام غير المباشر لشن الهجوم على هؤلاء الرجال ، فان السبب الخاص المباشر هو أنهم كانوا محل ثقة قاضي مصر لهيعة بن عيسى الحضرمي ( ت ٢٠٤ هـ ) الذي اختارهم ليعاونوه في مهمته الجليلة الشاقة عن طريق الشهادة أو السؤال عن الشهود .

أما القاضي لهيعة نفسه فأنه رجل عربي ينتمي الى قبيله حضرموت وهي من أهم القبائل العربية التي أستوطنت مصر ، وكان دورها فيها حضاريا ايجابيا ، فقد ظهر منها اعداد كبيرة من الرجال الذين أشتغلوا بالعلم والسياسة وشغلوا مناصب الدولة الكبرى - ويكفي مثالا لذلك أن حضرموت ضربت رقما قياسيا في عدد من ولى قضاء مصر من رجالها ففي حوالى قرن ونصف قرن ( ٨٤ - ٢٤٤ هـ ) ولى قضاء مصر تسعة من الحضارمة أى بمعدل قاض واحد كل ثمانية عشر عاما . هؤلاء عدا من ولى القضاء منهم في الفترة نفسها في الاندلس وبقية وفلسطين ودمشق وحمص . وكان لشعراء حضرموت كل الحق في أن يعدوا هذا التفوق القانوني القضائي من مفاخر قبيلتهم الاساسية . فقال أحدهم :

لقد ولى القضاء بكل أرض من الغر الحضارمة الكرام  
رجال ليس مثلهم رجال من الصيد الجحاجة الضخام



وقال آخر:

يا حُزْمُوت هنيئًا ما خصصت به  
من الحكومة بين العجم والعرب  
في الجاهلية والاسلام يعرفه  
أهل الرواية والتفتيش والطلب  
وقديما عرف الخليفة الاموي الاول ، معاوية ( ت ٦٠ هـ ) ،  
لرجال حُزْمُوت كفاءتهم فكتب الى أمير مصر يقول : " لا تول  
عملك الا أزديا أو حُزْمُوتيا فأنهم أهل الامانة .

أما من الناحية الفردية فأن لهيعة بن عيسى خير نموذج لرجال  
قبيلته الممتازين . فهو عالم ، فاضل ، كفاء . استخلفه أحد أمراء  
مصر على حكمها سنة ١٨٩ هـ . وولى قضاء مصر مرتين - الاولى  
سنة ١٩٦ هـ - والثانية سنة ١٩٩ هـ - قام في اثنتاهما بعملين  
هامين جدا ، أولهما أنه أعاد النظر في أحباس - أى أوقاف - مصر  
كلها سواء كانت أهلية أو حكومية ، ففحصها وجدد الشهاده بها  
وحكم فيها ، أما العمل الثانى فهو أنه أعاد تعمير مواحيز مصر أى  
ثغورها وحدودها . فقد كان المتبع هو أن يقوم بحماية هذه المواحيز  
قوات مسلحة تتكون من أهل الديوان - أى جيش الدولة - ومن  
المتطوعين . وكان أفراد هذه القوات يتقاضون أعطياتهم ، أى  
مرتباتهم السنوية ، مره كل عام فى شهر أبيب من حصيلة أحباس  
النسبيل أى الاوقاف الموقوفة فى سبيل الله . وينبغى أن نلاحظ أن  
المتطوعين والفقراء فقط من أهل الديوان هم الذين يتقاضون مرتبا  
. فلما نشب الصراع بين الامين والمأمون على الخلافة ( ١٩٦ -  
١٩٨ هـ ) امتدت آثاره الى مصر التى انقسم أهلها الى  
معسكرين خاضا غمار حرب أهليه لم تنته الا بمصرع الامين وفى  
خلال ذلك اضطربت أمور مصر اضطرابا عنيفا شغل السلطة  
الحاكمة عن الاهتمام بالحدود ، فأوقفت مرتبات القوات المرابطة  
هناك مما أدى الى تخليها عن مواقعها وترك تلك الاماكن الحساسه  
الخطره المنتشره من العريش شرقا الى ليبيا ومراقية غربا بدون  
حمايه . ويبدو أن هذا الوضع كان يقلق القاضى لهيعة بن عيسى

فإنه لم يكّد يلى قضاء مصر حتى بادر الى تشكيل فرق خاصه  
لحماية الحدود تتقاضى مرتباتها من حصيلة أحباس السبيل التى  
كان يشرف عليها قاضى مصر بحكم منصبه . وكان لهذا الاجراء  
رنة فرح قويه عند الناس الذين لا بد أنهم كانوا بدورهم يعانون أشد  
القلق وهم يعيشون فى بلاد مفتوحه . فأطلقوا على هذه القوات  
الجديدة اسم « فروض لهيعة » تخليدا لذكرى القاضى الذى أعاد  
أنشاءها ( ١ ) . ليس هذا فحسب ، بل أن الشعر قام ليسجل ذلك  
العمل الهام ، ويشكر صاحبه ، ويعبر عن فرحة الجماهير وشعورها  
بالاطمئنان . فقال الشاعر فراس المرادى :

لعمري لقد سارت فروض لهيعة  
الى بلد قد كاد يهلك صاحبه  
الى بلد تقرى به اليوم والصدى  
تعاوره الروم العظام تحاربه  
رشيد وأخنا والبرلس كلها  
ودمياط والاشتوم تقوى يغالبه  
لهيعة لقد حزت المكارم والثنا  
ومن عند ربى فضله ومواهبه  
فقد عمرت تلك الثغور بسنة  
تعد إذا عدت هناك مناقبه

وهكذا لم يكن فى ذلك القاضى ، الذى كان آخر القضاة  
الحضارمه التسعة بمصر ، والذى ظل على قضاء مصر حتى توفى  
سنه ٢٠٤ هـ ، ما يعيبه اللهم الا ما يذكر من أنه كان معيانا أى  
حسودا حتى أن أحد زملائه كان يضع فى لحيته - وكانت كبيرة  
جدا - عوذة اذا خطب يوم الجمعة خوفا من عين لهيعة .  
والذى يهمنى على أى حال هو أن لهيعة هذا حين ولى قضاء  
مصر شكل لنفسه هيئة خاصة من المساعدين تتكون من حوالى  
ثلاثين رجلا مهمتهم الكتابه له ، والشهادة عنده ، والسؤال عن  
الشهود الذين يحضرون للشهادة عنده . واكتسب هؤلاء الرجال من  
عملهم نفوذا ، فقد كانوا يستطيعون أن يحرّموا من جق الادلاء

بالشهادة أى فرد يثبت لديهم انه أتى مايسقط عدالته . وقد حدث فعلا أن أسقطوا أكثر من واحد أتوا أفعالا تجرحهم . ومن أشهر ماحدث فى هذا الصدد أيقاف شهادة شيخ من اكابر أهل البصرة يكنى أبا التمام . كان يقيم فى الفسطاط ، وكان حسن الجوار ، حسن المعاملة كثير الصوم والصلاة باذلا للمعروف ، مظهرا لزكاة ماله ، ولكنه كان - على ماثبت لمعاونى القاضى لهيعة هؤلاء - قدريا أى من المعتزلة ، فبادر لهيعة الى أيقاف شهادته بالرغم من أنه كان يعلم الكثير عن فضل ذلك الرجل ، وبالرغم من أن وجوه أهل البصرة - بالفسطاط ذهبوا اليه وذكروا من جمال أبى التمام وفضله وأكثروا من الثناء عليه . وكانت حجة لهيعة « أنه يكره أن يراه الله عز وجل أجاز شهادة قدرى » .

وحتى هذا الحد تبدو الامور طبيعية . ولكن الوضع يختلف حين نعرف أن هؤلاء الرجال الذين استعان بهم القاضى لهيعة ، ووكل اليهم الاجراءات القضائية ، وعلى رأسهم سعيد بن تليد ومعاوية الاسوانى وسليمان بن برد كانوا من القبط ، أى كانوا من المسلمين المصريين أصلا ، وهكذا نجد أنفسنا أمام نفس موقف أهل الحرس فها هنا كما كان هنالك رجال من صميم الطبقة الشعبية قد استطاعوا عن طريق اعتناق الاسلام أولا ثم الاشتغال بالعلم ثانيا أن يشغلوا الوظائف الهامة ، وأن يملكوا من السلطة مايسقططيعون معه أن يتحكموا فى الآخرين ولو كانوا من الاشراف . وفى كلمة استطاعوا أن يحققوا ارتقاء طبقياً لاشك فيه فيرتفعوا من الطبقة الشعبية المقهورة الخاضعة للحكومة الى الطبقة الارستقراطية السائدة الحاكمة .

ويبدو أن تجربة أهل الحرس القريبة جعلت اشراف الطبقة العربية يحجمون عن أن يكرروا نفس أسلوبهم فى الصراع مع هؤلاء المسلمين الجدد ، فلم يتعرضوا لهم ولم يتحرشوهم ولم يؤذوهم كما فعل هاشم بن حديج والعلاء بن عاصم وأبو الدهمج الكندى مع أهل الحرس من قبل ، ولكنهم اكتفوا بأن يحاربوهم

أدبيا بسلاح الفن ، ولما كان الشعر حينذاك هو أكثر الفنون ذيوعا  
وأعظمها سلطانا فقد كلفوا - فيما يظن - الشاعر أبا شبيب أنيس  
بن دارم مولى تجيب - القبيلة العربية الارستقراطية - أن يهجوهم .  
وربما كان أبو شبيب قد صنع فى هذا الصدد شعرا كثيرا لم يبق  
لنا منه سوى قصيده يتيمة دلل الكندى صاحب الولاة والقضاة على  
فطنته كمؤرخ وذوقه كأديب حين حفظها لنا كاملة . وهذه هي :

قبح الله زمانا رأس فيه ابن تليد  
بعد مقراض وخيط وأبيرات حديد  
وأبو الزنباع خناق غراميل العبيد  
بعد سيف خشبي وسهام من حديد  
وأبن توراق الافانين البليد ابن البليد  
أبن بكار كراكير وغطاس الثريد  
وأبو الروس المريسي أبن دباغ الجلود  
واللقيط ابن بكير نطفة القدم الطريد  
وأبن سهم حارس الجيزه حلوان البريد  
عصبة من طينة النيل مناسى الجنود  
لبسوا بعد التبايين نفيسات البيرود  
لازموا المسجد ضلا لا من الامر الرشيد  
لحوانيت بنوها بفناكل عمود  
وتسموا وتكنوا بعد جرجه وشنود  
والأخوة بجباه من نطاح الحصر سود  
تحت أميال طوال كبر اطليل اليهود  
نصبوها كالمقاعيد على روس القود  
وتراهم للوصايا وعدالات الشهرود  
فى مرأى وجدال وقيام وقعود  
وخشوع وأبتهال وركوع وسجود  
وعلى القسمة أضربى من تماسيح الصعيد  
وأشاروا للهدايا بأبى عبيد الحميد

لعل أول ما يلفت النظر في هذه القصيدة أن قائلها من الموالى ،  
أى أنه ينتمى اجتماعيا الى نفس الطبقة التى ينتمى اليها الافراد  
الذين يتناولهم بالهجاء . وكان الطبيعى بحكم المصلحة المشتركة  
أن يقف فى صفهم ، ويدافع عن قضيتهم التى هى فى نفس الوقت  
، قضيته ، غير أن الشعر كان ينتمى فى المجتمع المصرى وسائر  
المجتمعات الاسلامية فى تلك العصور الى الطبقة الحاكمة ليس  
فقط لانه فن هذه الطبقة الاصيل ، ولكن كذلك لانه فن محترف . واذ  
كان الكسب المادى هو الهدف الاول والاخير للفن المحترف فقد ظل  
الشاعر العربى مزغما على أن يضع نفسه فى خدمة الطبقة  
السائدة اقتصاديا وهى دائما الطبقة الحاكمة - فيتغنى بقيمها ،  
ويدافع عن وجهه نظرها ، ويهاجم خصومها . وهكذا ظل الشاعر  
العربى أسير اليمين التقليدى لا يخطر بباله ، بل لا يستطيع على  
الاطلاق أن يتخذ موقفا يساريا ثوريا معارضا يدافع فيه عن  
الطبقات المقهورة ضد الطبقات القاهرة بل لقد كان الحلم الأكبر  
لكل شاعر هو أن ينجح فى أن يبيع مقدما سلعته الفنية لسيد أو وال  
أو امير أو خليفه يظل طول عمره بعد ذلك يسبح بحمده ويصطنع  
التبريرات الفنية لكل أعماله مهما بلغ حظها من الخطأ وليس الشعر  
العربى الكثير جدا فى الشكوى وذم الناس والدهر سوى التعبير  
عن ضيق الشاعر العربى بحياه الحرمان القاسية التى يعانىها  
أفراد الطبقة الشعبية ورغبته القوية فى الفرار منها الى حياة الرغد  
والامان التى تتمتع بها الطبقة الارستقراطية على يد واحد من  
أفرادها .

والزمان الذى يعلن الشاعر سخطه عليه فى مطلع قصيدته ليس  
شيئا آخر سوى الاوضاع الاجتماعية التقدمية التى هيات لهؤلاء  
الافراد من مساعدى القاضى لهيعة أن يصعدوا من الحضيض  
الاجتماعى الى ابهى العلم والثروة والرئاسة فالارتقاء الطبقي فى  
رأى ذلك الشاعر المعبر عن وجهة نظر الرجعية الارستقراطية  
ظاهرة مرضية تشير الى وجود خلل فى البناء الاجتماعى .

ولا تتمتع الشخصيات المذكورة في القصيدة بنصيب متساو من الشهرة . فليس بين أيدينا معلومات واضحة عن غير سعيد بن تليذ الذي كان وثيق الصلة بالحياة القضائية في مصر . فكان القاضي الفضل بن غانم الخزاعي ( ١٩٨ - ١٩٩ هـ ) يستدعيه إليه . ثم أستاذية القاضي لهيعة ابن عيسى ( ١٩٩ - ٢٠٤ هـ ) ، وجعله على مسائله ، وأمره بتجديد السؤال عن الشهود في كل ستة أشهر ، كما كان من شهود لهيعة وبطانته . ولما ولي عيسى بن المنكر قضاء مصر ( ٢١٢ - ٢١٤ هـ ) جعله على مسائله كذلك . أما أبو الزنباع فهو روح بن الفرّج بن عبد الرحمن القطان ( ت ٢٨٢ هـ ) ، مولى الزبير بن العوام ، ممن التزم مذهب مالك وكان عالما فيه فقيها به ، مثلما كان أوثق الناس في زمانه . ومما له دلالة الواضحة أن ينص في ترجمة أبي الزنباع هذا على أنه قد « رفعه الله بالعلم » . أما ابن بكير فهو يحيى بن عبد الله بن بكير ( ت ٢٣١ هـ ) ، الفقيه المصري الكبير مولى بني مخزوم ، صاحب مالك الذي روى الموطأ عنه سبع عشرة مرة ، كان من أوعية العلم مع الصدق والأمانة ، ومن حفاظ الحديث ونقاده ، وممن سمع عنهم البخاري بمصر . وهو المرجع الأخير لقدر طيب من روايات الكندي . ولما أصبح من أصحاب القاضي العمري ( ١٨٥ - ١٩٤ هـ ) وخاصته ضمه إلى صاحب مسائله وأمره بإقامة من عرف منه سنن وفضل ، مثلما جعل إليه أموال اليتامى فاستغلها ثم استولى على أصولها بعد أن سدّد اليهم مبالغهم الأولى من الأرباح وظل ابن بكير محتفظا بمكانته في مصر فكان أول من تكلم في المؤتمر الذي عقده أميرها عبد الله ابن طاهر في القسطة سنة ٢١٢ هـ من كبار الفقهاء المصريين لانتخاب قاض لهم . وربما كان أبو الروس المريسي هو نفس معاوية بن عبد الله الاسواني أحد شهود لهيعة والذي استطاع أن يصبح فيما بعد صاحب مسائل قاضي مصر أبراهيم بن الجراح ( ٢٠٥ - ٢١١ هـ ) بعد أن أعطى ابن القاضي ألف دينار . أما الباكون وهم : ابن توراقي الأفانيزي وابن بكار



غطاس ، وأبن سهم فلا نعلم عنهم أكثر مما ورد عنهم فى القصيدة .

ولكى يؤيد الشاعر دعواه فى عدم استحقاق هؤلاء الرجال ماوصلوا اليه من نجاح يكشف وضاعة اصلهم عن طريق الاشاره الى اعمالهم الاولى . واذا كان واضحا أن ابن تليد خياط ، فإنه ليس من الواضح تماما مايقضده الشاعر من أن أبا الزنباغ كان له سيف خشبى وسهام من حديد . أن أبا الزنباغ يوصف فى ترجمته بالقطان ، ولسنا نستطيع تحديد العلاقة بين الاشتغال ببيع القطن أو حتى غزله وبين السيف الخشبى والسهام الحديدية . أما أبو الروس فلعله كان يشتغل كآبىه بالدباغة . ولسنا ندرى أى عيب فى أن يكون ابن سهم من العاملين بالبريد فى الجيزة وأيا كان الامر فإن الخطيئة الكبرى لهؤلاء الرجال هى أنهم « من طينة النيل » . أى قبط أو مصريون لاتجربى فى عروقهم الدماء العربية النبيلة . كما أنهم ليس لهم أجداد أمجاد ينتسبون اليهم ، ويحفظون السلسلة التى تصلهم بهم ، بل أنهم - مثلهم مثل كل الاجناس غير العرب - يكتفون بالانتساب الى قراهم ماداموا « مناسى الجدود » .

★★★

ولما كان الارتقاء الطبقي هو جوهر المشكله فإن الشاعر يسجل بعض مظاهره فقد أستغنى هؤلاء الرجال عن التباين اى السراويل القصيره التى لا تلبسها الا الفلاحون والفعلة وأصبحوا يرفلون فى البرود النفيسة ويضعون على رؤسهم القلانس الضخمة العالية مثلهم مثل كبار العلماء ، وتجاوز التغيير الثياب الى الاسماء نفسها ، فقد نبذوا أسماءهم المصرية المسيحية من مثل : جرجس وشنوده الى الاسماء العربية بل أنهم تمادوا فاتخذوا الكنى على عادة العرب الاقحاح . ولما كان الاسلام هو الذى فتح أمامهم الباب الى هذا الارتقاء الطبقي فأنهم يبدون اجتهادا واضحا فى ممارسة شعائره فهم يلازمون المسجد الجامع حيث يتعبدون على مرأى من الجميع خاشعين مبتهلين واذا سجدوا أطلوا حتى تتأثر جباههم .

وفى غير الصلاة يديرون فيما بينهم المناقشات العلمية الجادة الحادة فى أمور الدين ومسائل الفقه ومشكلات القانون .

غير أن الشاعر لا يقنع بهذا الهجوم المعتدل فهو يتجاوزه الى الهجاء المقذع فأبو الزنباع خناق غراميل الغبيد ( لعلها اشاره الى أصابته بالشذوذ الجنسي ) ، وأبن توراق الافانين قد ورث البلادة عن أبيه وأبن بكير لقيط أتى سفاحا من رجل ضائع مجهول . ويبلغ هذا الهجاء الذروة عندما يصوغه الشاعر فى صور كاريكاتيريه تجمع بين قوة الفن وقسوة السخرية . فالمدعو غطاسا أصبح يجيد الغطس فى الثريد بعد أن كان المقصود غطاس التعميد . وهؤلاء الرجال لا يسجدون عند الصلاة كما يسجد سائر المصلين ولكنهم ينطحون الحصر نطحا حتى تحدث ندبا أسود فى جباههم يتباهون به . وأغطيع رؤوسهم تشبه قلانس اليهود . وهم يبدون فيها كقرود تضع غرارات على رؤوسها وحين يتناقشون يأتون بحركات كثيره مقصوده تقنع من يراهم بأنهم رجال ورعون جادون لا يعنيههم الا اقرار الحق وأيصاله الى صاحبه . فى حين أنهم لا يحكمون لصالح أحد الا اذا قبضوا الرشوة التى يحبونها حبا جما ويرمزون اليها فيما بينهم بكلمه « أبى عبد الحميد » .

ولاتخطيء العين مافى القصيدة من روح مصريه مثل تسمية الرجل الصعيدى كبير الرأس بأبى الروس على مانفعل نحن المصريين حتى اليوم . ولم يجد الشاعر أفضل من تماسيح الصعيد الضاريه يشبه بها هؤلاء الرجال فى جشعهم وشراهتهم للرشوة ولعل « أبى عبد الحميد » الذى يرمز به الى الرشوة كان اصطلاحا مصريا شائعا حينذاك مثل اصطلاح ( أبى الندى ) الذى كانوا يطلقونه على كل لص خطر .

وأيا كان الامر فلاشك فى أن هذه القصيدة وثيقة تاريخية بقدر ماهى أثر فنى بديع .

\*\*\*

أما بعد - فنحن لانزعم أن أصحاب القاضى لهيعة هؤلاء كانوا

شخصيات مثلى . فقد كانت لهم بلا شك عيوبهم . بل أن بعضهم كان له أخطاءؤه الجسيمة ( يحيى بن عبد الله بن بكير ) . ولكننا لانستطيع أن ننكر من جهة أخرى أنهم كانوا . فى مجموعهم رجالا ممتازين حقا ولأدلى على ذلك من اختيار القضاة - وفيهم عرب أصلاء - أياهم وأعتمادهم عليهم ، وثقتهم فيهم . غير أن الصراع الطبقي - وهو ظاهرة طبيعية . ومشروعة تماما - يستحل - بما هو صراع على البقاء ذاته - كل سلاح بما فى ذلك أنكار أى فضل للخصم . ولم يكن فى ذلك بأس كبير أبدا فالحياة دائما أعلم . حيث تجعل رسالتها ، وهى تعرف جيدا كيف تنتخب بنواميسها الدقيقة الاصلح ، وتنفي الاخيبث ، بحيث يكون النتيجة آخر الامر فى صالح العناصر القادرة على أن تحقق للحياة غايتها المتجددة من البقاء والارتقاء .

- 
- ( ١ ) أصبحت هذه القوات تعرف بأسم فروض القاضى ابتذا من عام ٢٢٦ هـ - بناء على أمر قاضى مصر ابن أبى الليث .
- ( ٢ ) الأرجح أنه محمد بن عاصم بن جعفر بن تذراق بن زكوان بن بناق مولى المعافر ( ت ٢١٥ هـ ) وكان من أهل الصدق .

## ابن المقفع المصري

مدينه .

فى مركز الروضه ، التابع لمحافظة أسيوط ، تقوم منذ آلاف السنين مدينه . لم تنجح فى الاحتفاظ بالبقاء حتى اليوم فحسب ، بل أستطاعت أيضا أن تظل محتفظه بأسمها المصرى القديم : أشمون ، مع تغيير بسيط قضت به ظروف تاريخيه حولت هذا الاسم الى صيغه المثنى فأصبح : الاشمونين .

ولما كانت سياسه البطالمة تهدف الى " أغرقه " مصر ، فإنهم أطلقوا على المدن الرئيسيه أسماء يونانيه خالصه .. وكان نصيب الاشمونين من ذلك أن أصبح يطلق عليها " هرموبوليس مجنا " ، أى : مدينه هرمز الكبرى .. ولكن هذا التغيير كان على الورق فقط ، إذ أن الاسم المصرى القديم ظل حيا على ألسنه الناس .. فلما سقط البطالمة سقطت معهم هذه الاسماء الدخيله التى الصقوها بالمدن الصاقا مفتعلا ، وواصلت الاسماء الوطنيه حياتها .

وفى القرن السابع الهجرى ( الثالث عشر الميلادى ) كانت الاشمونين ماتزال مدينه عامره أهله ، ذات بساتين ونخل كثير ، بل كانت ماتزال محتفظه بوضعها كعاصمه لهذه الكوره ( الاقليم ) التى تحمل اسمها فى الصعيد الادنى غربي النيل .. كما كان من أبنائها عدد من المشاهير ،

مسؤول :

فى أوائل العصر الفاطمى ، كان يجلس على كرسى أسقفية الاشمونين رجل فاضل من أبنائها يسمى ساويرس ، وأشتهر بأبن المقفع .. بدأ حياته كاتبا ثم اشتغل بالدين ، أحبه الخليفه الفاطمى

الاول المعز لدين الله (٣٦٥ هـ) ، وقربه اليه وجعله من الشخصيات الدائمة فى مجلسه .

ولما كان ساويرس رجلا ذكيا ، واسع الاطلاع ، يجيد العربية .. فكثيرا ماكان ينتصر فى المناظرات والمجادلات التى كان يروق للمعز عقدها فى قصره .

وأنتج ساويرس رسائل ومقالات كثيرة جدا تتناول كلها موضوعات لاهوتية وفلسفية .

### كتاب :

على أن أهم مؤلف أنتجه ساويرس هو ذلك الكتاب الذى ترجم فيه للبطاركة الذين جلسوا على كرسى كنيسة الاسكندرية منذ أنشائها ، وهو كتاب تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة .

وعلى الرغم من أن الكتاب يتحدث أصلا عن أخبار الطبقة العليا من رجال الدين المسيحى ، فإنه يحتوى على كثير من أخبار الحياة العامة فى مصر وهى أخبار بالغة الاهمية وتكشف الكثير من حقائق العصر الذى تتعلق به .

تشكل لغة مؤلف هذا الكتاب - من حيث المفردات ، والنحو ، والاسلوب - وثيقة هامة فى مسأله أنتشار اللغة العربية بين سكان البلاد الاصلين من جهة ، ونشوء اللغة العامية - أى اللهجة العربية الخاصة بمصر - من جهة أخرى .

### انتشار اللغة العربية :

استقى ساويرس معلوماته التى صاغ منها هذا الكتاب من وثائق مكتوبة باللغة اليونانية واللغة القبطية ، وجد بعضها فى ديارات مصر الكثيرة ، وبعضها الاخر فى أيدي الناس .. ولما كان

ساويرس - مثله مثل معاصريه - يجهل هاتين اللغتين ، فقد استعان بمن يعرفهما من زملائه من رجال الدين على ترجمه الوثائق الى اللغة العربية :

يقول ساويرس فى المقدمة الثالثة لكتابه ( ص ١٧ ) :  
" وأنا ممن لايجب له أن يكتب بخط يده البائسه الفانيه شيئا من أخبارهم ، فأستعنت بمن أعلم أستحقاقهم من الاخوة المسيحيين ، وسألتهم مساعدتى على نقل ماوجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى الى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بأقليم ديار مصر لعدم معرفة اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم " .

وهذا الاعتراف الصريح ذو دلالة خطيره جدا .. فساويرس رجل يشغل منصبا دينيا يفرض عليه أن يظل متمسكا بلغته الاصلية ، ويكون آخر من يتخلى عنها .. فأذا وجدناه يجهل - أو فى الاقل لايجيد - اللغة القبطية ، وكذلك اللغة اليونانية التى ظلت قرونا عديده لغة مصر الرسمية والادبية ، كان ذلك دليلا لاشك فيه على أن هاتين اللغتين كانتا قد أنتهتا فى أواخر القرن الرابع الهجرى ( أواخر العاشر الميلادى ) - وهو القرن الذى عاش فيه ساويرس - الى درجة ملحوظه من الضعف ، بحيث أصبح أستعمالهما محصورا فى بيئه بعينها وفى قله من أفراد هذه البيئه .

على أن ساويرس لم يكن يعرف العربيه فحسب ، وإنما كان جيد التعبير بها تعبيرا أدبيا فنيا يحمل طابع العصر الذى عاش فيه .. نلمس هذا فى القطع الادبيه التى قدم بها لكتابه .

من ذلك قوله فى المقدمة الثانية لكتابه " المجد لله باعث العلوم ومبديها ، وخالق الامور ومنشئها ، وصانع الخلائق ومكونها ، ومهدى من يشاء ومصطفيه ، ورافع من يختاره من عبده صفوته وخلقه الصالحين وينتخبه ويرتضيه .. الذى يرفع من الارض مسكينا ، ومن المزبله فقيرا ، فيجعله ملكا على خلقه ، ومسلطا على تدبير عبادہ وبلادہ ، وكرسى العز يورثه ليحكم فى الارض بالعدل ،



وبين الناس بالحق ، ليقمع القوى عن الضعيف ، وينقذ المظلوم من الظالم .. وذلك حكم ' الله وحكمته التي لا يفهمها أحد من المخلوقين ، المخفية سرائره عن الحكماء وذوى الالباب ، الذى يقيم فى كل زمان من يضاهى أهله ، والرءوف المتحنن .. الخ .  
وكذلك قوله فى المقدمة الثالثة :

" لما علمت - أنا البائس الخاطيء ، الغارق فى بحار آثامه ، المفنى بالخطايا أيامه ، المتأسف على تفريط وتضييع شهور عمره وأعوامه ، بالامل والتسويق المفسدين لدينه وقوامه - وتحققت ماأنعم به السيد المسيح المخلص - لذكره السجود - على جميع بنى المعمودية الذى ( كذا ) اشتراهم بدمه العظيم .. الخ ."

نخرج من هذه الظاهره - ظاهره تمكّن القبط من التعبير باللغة العربية - بنتيجته جديده ، أذ لما كان التعبير الفنى بلغه ما مرحله متأخرة تأتى بعد مرحلة المعرفة العادية لهذه اللغة .. كان ذلك دليلاً على أن سكان البلاد الاصليين قد اعتنقوا هذه اللغة وأستعملوها فى حياتهم اليومية منذ زمن طويل .. ونستطيع أن نطمئن - استناداً الى نصوص ثابتة - الى أن هذا الزمن يرجع الى القرن الثالث الهجرى .

### نشوء اللغة العامية :

على أن كتاب ساويرس المذكور يقدم لنا - فى ميدان اللغة - ظاهره أخرى لاتقل أهميه ولانفاسه عن الظاهره السابقه التى فزعنا من عرضها .

فالقارىء فى ذلك الكتاب سرعان مايلتفت الى كلمات وظواهر وتعبيرات هى تماماً نفس مانجد نحن اليوم ونستعملها فى لغتنا العاميه التى نتبادل بها الحديث فى حياتنا اليومية الحاضرة . والخطوره البالغه لهذه الظاهره اللغويه فى أمرين :

١ - المصريون فى القرن الرابع الهجرى كان تعريبهم اللسانى قد

تم على أوسع نطاق ، بمعنى أن الشعب كله - لاطبقه بعينها منه -  
قد أصبح يتكلم العربية بهذه اللهجة التي نراها فى كتاب  
ساويرس .

٢ - لما اعتنق المصريون اللغة العربية وأصطنعوها لسانا ، ظلوا  
محتفظين بخصائصهم اللغوية الاصلية من جهة ، وبروحهم الفنية  
الخاصة فى التعبير من جهة أخرى .

وهذه أمثلة توضح ذلك مأخوذة من كتاب ساويرس المذكور .  
أولا - كلمات قبطية ويونانية معربة :

لما تكلم المصريون العربية لم يعن هذا أن اللغة القبطية امحت  
تماما .. وإنما أصبح كثير من الفاظها - وخاصة مايتعلق بالشئون  
العملية - ينطق نطقا عربيا . وينطبق هذا أيضا على اللغة  
اليونانية ... مثال ذلك :

أواسى ( جمع وسية OUSIAI  
قيراط KERATION

أى ضيعة ) :

قانون KANON :

أكور ( إقليم ) KHORA :

كوم ( قرية ) KOME :

طوب TOBI :

الخنن OYENT :

شونية CHENI :

شراقسى CHARKE :

ويبية WIPI :

أردب ERTOB :

قنديسل KANDELE :

ناموس ( قانون ) NOMOS :

ثانيا - كلمات عربية ممصرة :

فى لغتنا اليومية كلمات عربية خالصة ، ولكنها تستعمل  
استعمالاً بيئياً خاصا .. وفى كتاب ساويرس شىء كثير من ذلك ،

مثل :  
البطالة : القبيحة ( وفى القاموس : رجل بطل : ذو بطل ، بين  
البطل ) .

تخلينا : تتركنا . حس : صوت .  
أختل : جن . العالم : الناس ( وفى القاموس : العالم : الخلق  
كله ، أو ماحواه بطن الفلك ) .

بحرى : الشمال .

قبلى : الجنوب .

مساس : حذاء .

ثالثا - ظواهر لسانية :

١ - قلب الذال المعجمة دالا مهمة : هذه ظاهرة موجودة فى الكتاب  
كله مثل : سادج - الارتدكسيون .

٢ - قلب الثاء المثلثة تاء مثناه : تشيع هذه الظاهرة فى الكتاب كله  
كذلك ، ومن أمثلتها الواضحة : الارتدكسيون .

٣ - قلب الظاء ضادا : ينصف ( ينظف ) .

٤ - قلب الضاد ظاء : الفضيع ( الفظيع ) .

٥ - تخفيف الهمزة : ياكل - ملانه - جاب الشيء ( جاء به )

رابعا : - ظواهر نحوية :

١ - الجمع على غير قياس : أبهات ( أباء ، جمع : أب ) .

٢ - تأنيث كلمة : مركب ( مركب صغيرة ) .

٣ - الحاق ياء المخاطبة بالماضى : جرحتى - أخرجتى - تركبتى  
- مضيتى .

٤ - الاتيان فى الفعل المسند الى الظاهر بعلامة التثنية أو الجمع  
( لغيره أكلونى البراغيث ) :

تشيع هذه الظاهرة فى الكتاب كله .

مثلى :

ملكوا المسلمون الاسكندرية - ماتوا نساؤه وعلمانه .

٥ - همز غير المهموز : أباع - أحرَم ( وفى القاموس : أحرَم بمعنى : حرم لغة ضعيفة ) .

٦ - الصفة المشبهة : حنين ( حنون ) - شجيع ( شجاع ) .  
خامسا - تعبيرات عربيةٌ مصرية الروح :

١ - عاد بقلّة حياء الى الاسكندرية

٢ - طول روحك على

٣ - كان كلامه كالعسل

٤ - وضع مقالات تجديف وكفر بلسانه المستحق إقطع .

٥ - لتوحله فى الزيجه .

٦ - أمض وشاور نفسك

٧ - سقط الرجل على الارض وانقطع جسده .

٨ - أقاموا على هذه القضية ( على هذه الحال ) ..

أما بعد ..

فهذا العرض عرض عام وسريع لمسألة من أهم المسائل التى تتعلق بحياة اللغة العربية وتاريخها فى مصر .. وإذا كانت النتائج التى وصلنا اليها هنا تساعد على تحديد الزمن الذى تكلمت فيه مصر العربية ، مغيرة بذلك لسانها للمرء الاولى فى تاريخها ، فأنها فى الوقت نفسه تساعد على تحديد الزمن الذى تبلورت فيه القومية العربية فى مصر التى أصبحت منذ ذاك عضوا مهما فى الاسره العربية الكبيرة ، ثم لم تلبث الحوادث والتطورات التاريخيه من جهة ، وأصالة مصر الحيوية من جهة أخرى ، ان اسلمت الى مصر الدور القيادى الرئيسى فى حياة العالم العربى .

## بين التاريخ والتطور

يؤمن " الامناء " فيما يؤمنون به من منهج البحث الادبي بنظريه الاقليمييه ، فيرون أدب الجماعه من الجماعات كائنا حيا يمارس حياته فى بيئته ماديه هى مجموع المقومات الطبيعيه للمكان الذى تحيا فيه الجماعه وبيئته مغنويه هى مجموع ضروب النشاط الحيوى الذى تمارسه هذه الجماعه فى اقليمها . وهم لذلك يرون واجبا على الباحث الادبى الاحاطة بما حول الادب قبل الاقدام على تناول الادب ذاته بالنقد أو التأريخ .. ومن هنا كانت أهميه الدراسات التى تعنى بالبيئه المصريه فى جانبها المادى والمعنوى بالنسبه الى المشتغلين بالادب المصرى . ومن أحدث الجهود فى هذا المجال عام ١٩٥٦ .. كتاب " آثار حضاره الفراعنه فى حياتنا الحاليه " الذى عالج فيه مؤلفه الاستاذ محرم كمال كشف مافى الحياه المصريه الحاليه من عادات وتقاليد ، وأفكار وقصص والفاظ ذات أصل فرعونى . والكتاب لاشك فى فائدته للقارئ العادى والباحث المختص ، الى مايمتاز به من سهوله وخفه روح . ويهمنى ، كواحد من العاملين فى حقل الادب المصرى ، معنى بكل مايتصل بهذا الادب بخاصه وبالحياه المصريه بعامه ، أن أسجل الانطباعات التى تركها عندى الاطلاع على هذا الكتاب .

### ١ - قضية وهدف :

الحياة المصرية الحاليه تكاد تكون صوره كامله لنفس الحياه التى قامت فى مصر الفرعونيه منذ آلاف السنين فليس هناك فرق حقيقى

بين. المصري الحديث والمصري الفرعوني .  
هذه هي القضية التي يريد المؤلف إثباتها بهذا الكتاب ، أو هذا  
هو الهدف الذي يريد أن يبلغه عن طريقه .

## ٢ - روح المحافظة :

ثبات الحياة المصرية يرجع - في رأى الاستاذ المؤلف - الى  
روح المحافظه " فالواقع أننا لانعرف شعبا فى العالم اجمع اشد  
محافظه من الشعب المصرى على تقاليده وعاداته . ( مقدمه -  
ص ٥ ) ، والفلاح هو المصرى النموذجى فهو الوعاء الحى الذى  
أدخرت فيه الحياه أساليبها وحفظ فيه المجتمع تقاليده ، فالفلاح  
الحالى لا يزال يشبه الذين عاشوا منذ أربعة آلاف سنة تمام  
المشابهه ( مع فارق اللغة والدين ) ، أما ملامحه وطريقه معيشته  
وأدوات الزراعه التى يستعملها والمنازل التى يسكنها والعادات  
التى يزاولها والتقاليد التى يسير عليها فهى مصريه فرعونيه فى  
روحها وشكلها ( مقدمه ص ٦ ) .

" وهو الذى حافظ على ماورثه من تقاليد وعادات ظل يتلقفها من  
أسلافه ، وينقلها وديعة الى خلفائه جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد  
قرن .. " ( مقدمه ص ٦ ) .

ولعل من الاسراف أن نعد المحافظه طبعاً أصيلاً فى الشعب  
المصرى يجعله أشد شعوب العالم محافظه ، فما هذه المحافظه  
التى نراها فى أكمل صورها فى الفلاح سوى مظهر للسلوك  
الجماعى (Folk - Ways) الذى فرضته على الجماعه المصريه  
أوضاع سياسيه واقتصاديه ثابتة لم يتناولها التغيير طوال تلك  
الآلاف من السنين . وإذا راعينا أن اختراع المحراث فى بدايه  
عصر الاستقرار الزراعى كان له أضخم الآثار الاقتصادية فى  
المجتمع المصرى ، كما كان لاستعمال النحاس فى بدايه عصر  
المعادن ( ٢٣٦٠ ق . م ) أضخم الآثار الاجتماعيه والحربيه فى  
المجتمع نفسه .. إذا راعينا هذا أستطعنا أن نتصور الآثار الهائله



التي يمكن أن تنال الفلاح الحالي عندما يسود التعليم وتستعمل الآلات الزراعيه الحديثه وتقوم صناعات كبرى في مصر . عندئذ يتخلى الفلاح عن تقاليده وعاداته وأساليبه الحاضره ويتحرر من هذه المحافظه ويكيف نفسه وفق الاوضاع الجديدة . ولاشك في أن كلا منا يعرف الكثير ممن نقلهم العلم أو الثراء من حياة الفلاحين الى حياه المدنيه ، ومن السهل جدا ملاحظه التطورات التي مربها هؤلاء الافراد .

### ٣ - تفسير آخر :

في الفصل الاول عرض شيق للعادات المصريه القديمه الباقيه في مصر الان ، وهذه العادات دينيه وخلقيه وعمليه . ولست أتصدى لمناقشة هذه العادات من حيث قيمتها التاريخيه ، وإنما لفت نظري أن الاستاذ المؤلف يرى هذه العادات طباعا أصيله في نفوس أجدادنا الفراعنه ورثناها نحن عنهم ، وهذا هو سر بقاء هذه العادات حتى اليوم .

وأعود فأقول أن ثبات ظروف الحياه على ماكانت عليه أيام الفراعنه هو المسئول عن أحتفاظ هذه العادات ببقائها . فحرص الفلاح على التبكير في الزواج والاكتثار من النسل ( ص ١٠ ) ضروره أقتصاديه يلجئه اليها حاجته الى اليد العامله أبتغاء زياده الانتاج ليفي بما عليه للسلطة الحاكمه من جهه وليحصل على قوته هو من جهه أخرى . ولما كان الفلاح قد ظل دائما القاعدة الثابته للهرم الاجتماعى في مصر ، يحمل فوق عاتقه سائر الطبقات الاجتماعيه ويرزح تحت ضغطها ، لم يكن عجبا أن يسعى كل مصرى الى أن يدخل الى الطبقة الحاكمه عن طريق الوظيفة الحكوميه وتنشأ في المجتمع المصرى عاده التمسك بوظائف الحكومه والتعلق بأذيالها ( ص ١٠ - ١١ ) ، أما مايبيديه الموظف المصرى من ضروب المداهنة والمصانعة للرؤساء أبتغاء مرضاتهم ( ص ١١ ) فخلق من الطبيعى أن ينبت في جو الحكم الاستبدادى

. وأعتقد أن الاستقرار الذي يلجئ اليه الاشتغال بالزراعة هو المسئول عن عزوف المصري عن الهجرة وكراهيته الاغتراب ( ص ١١ ) . ومن الممكن رد احتفاظ المصريين بأعتقادهم في السحر ( ص ١٣ - ١٥ ) ، والحسد ( ص ١٦ ) ، والطيرة ( ص ١٦ - ١٧ ) ، والزار ( ص ١٨ - ١٩ ) الى بقاء عقليتهم في نفس المستوى الميتافيزيقي أو الغيبي وفق قانون " الدرجات الثلاث " لاوجيست كونت وعدم انتقالها بعد الى الدرجة اليقينية . والى هذا السبب نفسه يمكن رد عبادة الشمس والنباتات والحيوان التي ماتزال محتفظة ببعض صورها في معتقداتهم ( ص ٨ - ١٠ ) . أما بقاء منازل الفلاحين ( ص ٢٠ - ٢١ ) وأدوات الفلاح ( ص ٢١ ) على صورتها الاولى فيفسر بأن الفلاح مازال يحيا في نفس الظروف الاقتصادية والحضارية الاولى .

#### ٤ - الرحمة والنور :

في الفصل الثاني عرض شيق كذلك لما ورثناه من العادات الجنازية عن قدماء المصريين . ومن هذه العادات العمل على تحقيق النور للميت في قبره سواء بأيجاد النور الفعلى أو بالدعاء له ، وأود أن أضيف أن هذه العادة كانت من أهم ماحرص عليه الناس في مصر غذاء أصبح الاسلام لهم ديناً .. وقد سجلت شواهد القبور التي ترجع الى القرون الثلاثة الاولى للهجرة أمثلة كثيرة للدعاء للميت بالنور والرحمة وغيرهما كقولهم : " اللهم لقنه حجته ، ونور عليه قبره " ، " اللهم أرحمه ، ووسع عليه مدخله ، ونور له في قبره " ، " اللهم أفسح له في قبره ، ووسع عليه مدخله ، وأضيء له فيه ، وأنس وحشته ، وأرحم غربته " . ( راجع :

SAUVAGET ET WIET COMBE REPERTOIRE  
CHRONOLOGIQUE D , EPIGRAPHIE ARABE

Repertoire Chronologique D,epigraphie Arabe

## هـ - بقايا لغوية :

الفصلان الثالث والرابع من الكتاب فصلان مهمان بقدر ما هما ممتعان . فأولهما خاص بالالفاظ المصرية القديمة الباقية فى لغتنا العامية ، فى حين يتناول ثانيهما الاسماء المصرية القديمة الباقية فى مصر الآن . وأنا لأعرف القبطية ولا الهيروغليفية ، ولذلك أقدم الملاحظات التالية بكل حذر :

١ - يرى المؤلف أن كلمه " يأوا " تقال على الطفل إذا أكثر من البكاء كلمه قبطيه بمعنى يعاكس ( ص ٢٨ ) ربما كانت نفس الكلمة العربيه التى تستعمل فى قولنا : قاقت الدجاجة أى صوتت ( القاموس : ماده القوق ) .. يرجح هذا أن البكاء أدخل فى الصوت منه فى المعاكسة .

ب - " سخم " بمعنى نجس أو لوث أو غطى بالوحل قبطيه . لفظا ومعنى ( ص ٣٩ ) . وفى العربيه تدل هذه الكلمه على السواد : فالاسخم = الأسود وسخم وجهه = سوده ، والسخام = الفحم وسواد القدر ( القاموس - ماده : السخم ) .. وربما دعانا هذا الى التردد قبل الجزم بنسبه هذه الكلمه الى أى من اللغتين .

ج - لفظه « ياما » " فى قولنا " دا شىء ياما " أو قولنا : وياما من ده كثير " هى الكلمه القبطيه " أما " معناها كثير ( ص ٤٠ ) . ولكننا نقول عادة : ياما أرق النسيم !.. ياما أمر الفراق !.. ولما كان هذا هو أسلوب التعجب العربى المعروف قريبا لم تكن لفظه " ياما " هذه سوى ما للتعجبية مسبوقة بأداء النداء : يا .

د - لفظه " أش " فى مثل قولنا : " عاوز أش ؟ " أو " أش " فى قولنا : " وأنت أش لك فى كده ؟ " هى القبطيه " أش " وأصلها الهيروغليفى " آخ " ، وهى حرف أستفهام بمعنى ماذا .

هكذا يقول المؤلف ( ص ١٤ ) . ولعله ليس هناك ما يمنع أن تكون هذه الكلمه هى الصوره التى انتهت اليها كلمتا " أى شىء " بعد طول الاستعمال فى اللغة اليوميه . يرجح هذا وجود هذه الكلمه

لفظاً ومعنى على لسان الناس فى أقطار عربية غير مصر .  
هـ - وكذلك لعل كلمة " شبار " التى يذكرها المؤلف على أنها  
قديمه : معنى عجيب أو غريب ( ص ٤٤ ) هى التركيب " أى شىء  
بار به ؟ " .

و - لفظه " طمس " فى قولنا " روح البعيد أنطمس دهيـه  
تطمسك " هى نفس الكلمة القبطيه بمعنى : دفن ( ص ٤٥ ) .  
ويجوز جدا أخذ هذه الكلمة بالمعنى العربى للطموس وهو الدروس  
والامحاء ( القاموس - ماده : الطموس )

ز - كلمة " سك " فى قولنا : " كان ماشى يسك الكعب " ليست  
عربيه وإنما هى كلمة قبطيه ومعناها جر أو سحب ( ص ٤٧ - ٤٨ )  
. وأحب هنا أن لاحظ أننا نقول فى لغتنا العاميه : " سك الباب "   
بمعنى أغلقه ، وهى نفس الكلمة العربيه ( صك ) بعد تخفيف  
الصاد وهو ما تفعله العاميه فى كلمات كثيره أخرى مثل : السندوق  
( الصندوق ) ، الصدر ( الصدر ) ، السمع ( الصمغ ) ... الخ . ولما  
كان من معانى الصك الضرب الشديد كما فى قوله تعالى :  
" فصكت وجهها للجبين " جاز أن يكون قولنا : " كان ماشى يسك  
الكعب " أى يصكه بمعنى يضربه بالارض ضرباً شديداً . ( أنظر  
القاموس - ماده : صك ) .

وأخيراً فلا شك فى أن الكثير من كلماتنا العامية فرعونى الأصل  
، ولكن ينبغى ألا ندع الميل الى تفسير الامور تفسيراً بعينه يحجب  
عنا احتمالات التفسير الأخرى الممكنة .

## ٦ - الوراثة :

يرى الأستاذ المؤلف أن كل تلك العادات والتقاليد والافكار  
والاخلاق التى تحدث عنها فى كتابه إنما أنتقلت من الاباء الاولين  
الى أجدادهم الحاضرين عن طريق الوراثة .

التبكير فى الزواج والاكتثار من الاولاد والنسل " عاده ورثناها  
أيضاً عن المصريين القدماء " ( ص ١٠ ) . نحن اليوم نستنكر

التهافت على الوظيفة الحكومية " ولكننا ننسى أننا ورثنا هذه العقلية عن أجدادنا ( ص ١٠ - ١١ ) . نحن نهزأ بما يديه الموظفون من ضروب المداهنه، والمصانعه للرؤساء أبتغاء مرضاتهم " ولكننا نسينا أن هذا الداء مولود فينا توارثناه عن الآباء والأجداد " ( ص ١١ ) . نحن نثور عندما نضطر الى الابتعاد من موطننا الاولى " ولكن يجب الانلام على ذلك ، فإن الاغتراب قد ولد فينا كرهه حين ولدنا ، وورثناه ضمن التركة التى خلفها لنا الأجداد ( ص ١١ ) .. " ثم أن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دماغنا بحكم الوراثة من آبائنا الأقدمين " مثل التمسك بالمظاهر الكاذبه ( ص ١١ - ص ١٢ ) .. أما كرم المصريين وأسرافهم فى الولائم والافراح فهما موروثان أيضا " ( ص ١٢ ) . أما ماندعوه الان بالسحر فقد ورثناه بأكمله عن المصريين القدماء ، ( ص ١٣ ) . " وكل مالدينا من غرام بالتمائم والتعاويذ والاحجيه ... كل هذه أن هى الا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء " ( ص ١٥ ) . " كان الطب فى مصر القديمه يختلط اختلاطا كبيرا بالسحر ... وقد ورثنا شيئا من قدماء المصريين فى هذا الباب " ( ص ١٧ ) . " المسألة - الزار - فوق هذا وذاك تقليد ورثناه أنحدر اليها ضمن التركة التى خلفها لنا المصريون القدماء " ( ص ١٩ ) .

وإذا كنا قد رفضنا من قبل فكرة المحافظة فأننا نقابل فكره الوراثة الان بتحفظ شديد . فكل الافكار والعادات والاخلاق التى ذكرها المؤلف لم تستطع أن تحتفظ ببقائها منتقلة عبر الاجيال والقرون لاننا تمسكنا بها وحافظنا عليها وتوارثناها ولكن لان أوضاع الحياه الاولى التى أنتجت هذه الامور ( الاستبداد السياسى - الاقطاع - الاحتكار - المجتمع الزراعى ) ظلت قائمة طوال تلك الاجيال والقرون فأرغمتنا على الابقاء عليها . وحتى اذا سلمنا أن فى الامر وراثه وجب أن نكون على وعى بأنها ليست وراثه

بيولوجيه تتم عن طريق الكروموسومات وأنما هي وراثه ثقافيه تتم  
اجتماعيا عن طريق التكرار أو التقليد . وبذلك يمتنع أن يقول مثلا  
أن الكثير مما نشكوه من عيوب يجرى فى دماغنا بحكم الوراثة من  
آبائنا الاقدمين مثل التمسك بالمظاهر الكاذبه مع ملاحظه قاعده  
على أعظم جانب من الاهمية فى علم الوراثة وهى ان الصفات  
المكتسبه لاتورث . وتكاد كل المتوارثات التى سردها المؤلف أن  
تكون من هذه الصفات .

#### ٧ - بين التاريخ والتطور :

أعود فأقول أننى لأعلق بشيء على الحقيقة التاريخية فى  
الكتاب ، وأنما يعينى منه فكرته وهدفه وقضيته إذ يريد أثبات أن  
مصر الحالية تكاد تكون صوره كامله من مصر القديمه . والمؤلف  
لايعلل هذا بجمود الاوضاع وأنما يرى فيه ثباتا للروح المصريه  
وأستمرارا لها عبر القرون فألاف القرى والدساكر بقيت محافظه  
على مصريتها . ( ص ٦ ) وملامح الفلاح وادواته وتقاليده .. الخ  
" مصريه فرعونيه فى روحها وشكلها " ( ص ٦ ) ، " الغزوات  
التي توالى على مصر لم تنل من مصريه سكانها ( ص ٢٤ ) . وقد  
أوضحت فيما سبق أننا لم نتوارث عادات محتومة ولاتقاليد لامفر  
منها ، وأنما نحن قد توارثنا فى الواقع أوضاعا اجتماعية معينة  
حملتنا على ضروب بعينها من السلوك ، ولاريب فى أننا مغيرون من  
سلوكنا بقدر ماتتغير أوضاع المجتمع عندنا .

والقارىء لايفوته الفرع الذى يبيده المؤلف كلما عثر على شيء  
قديم فى حياتنا الحديثه ، وتلك هى فرجه المؤرخ الذى يود لو يبعث  
الماضى كله حيا . ونحن لاناخذ عليه ذلك الفرع التاريخى وأنما  
نشعر بالخطر إذ نسمعه يقول اننا " نعيش فى نطاق تركه خلفها لنا  
القدماء ، تشدنا اليها سلسله من التقاليد والعادات ومختلف  
الاشياء التى تربطنا بها ربطا وثيقا لانجد الى فصم عروته سبيلا .



فنجن كما كنا ، وستظل دائما أبناء للفراغة وأنا بهذه التركة بكل ما فيها من محاسن وعيوب لجد فخورين " ( ص ٢٢ ) والمؤلف ليس محبا للقديم على علاقته فحسب ولكنه يأس كذلك من أصلاح ما في هذا القديم من عيوب لو حاولناه " فأن مئات " من العادات الجنازية نراها ونشدها كل يوم ، وقد ضج العلماء والمفكرون من انتشارها وأنبرى الكتاب لمحاربتها ، ومادروا أن البشر يصعب عليه أن يستأصل عادات استمدت قوتها من حكم الممارسة والمزاولة آلاف السنين ( ص ٢٤ ) . أن هذا الاتجاه يكاد يخرج بالكتاب عن كونه وثيقة تاريخية الى كونه دعوة الى تجميد الحياة المصرية ومقاومة تطويرها حتى تظل قائمه فى قوالبها الفرعونية القديمة التى تعجب المؤرخين وتخلب الباب الاثريين .

أنا نجل التاريخ ونحرص الحرص كله على الآثار . ولكننا فى الوقت نفسه لانرضى للتاريخ أن يقف عند مرحلة بعينها لا يعدوها ، بل نفتح أمامه الطريق ليسير ويتطور ويصنع أثارا جديدة ، لاننا بذلك نفتح الطريق أمام الحياة نفسها لتسير وتتطور وتصطنع صورا وقيما واتجاهات جديدة .

## فهرست

### صفحة

٧	..... هذه الأوراق
٩	..... الحصان الفاتح
١٧	..... رفيق السلاح
٢٦	..... رحلة الربيع
٣٥	..... رجال متمرّدون
٤٨	..... شخصيات نسوية
٧٦	..... أسوان : مدينة السوق
٨٤	..... النوبة : بلاد الاساود
٩٤	..... السموأل المصرى
١٠٩	..... الأدب فى معركة
١٤٤	..... ابن المقفع المصرى
١٥١	..... بين التاريخ والتطور

روايات الهلال تقدم :

# الليل والليل

(دراما يمنية)

تأليف  
الدكتور عبد الغفار مكاوي

تصدر ١٥ أغسطس ١٩٨٥

رقم الايداع : ٤٤٢٥ - ١٩٨٥

الترقيم الدولى : ٣ - ١٨٢ - ١١٨ - ISBN٩٧٧

## وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد / عبد المال بسيوني زغلول - الكويت -  
الكويت : الصفاة - ص ٠ ب رقم ٢١٨٣٣ تليفون ٧٤١١٦٤

جدة - ص - ب رقم ٤٩٣  
السيد هاشم علي نحاس  
المملكة العربية السعودية

THE ARABIC PUBLICATIONS  
DISTRIBUTION BUREAU  
7. Bishopsthorpe Road  
London S.E. 26 ENGLAND

انجلترا :

Miguel Maccul Cury. B. 25 de Marac. 990 : البرازيل  
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL

اسعار البيع للجمهور في الخارج للعدد العادي فئة ٦٠٠ مليم :

سوريا ١٠٠٠ ق. س. لبنان ١٠٠٠ ق. ل. الاردن ٦٠٠ فلس. الكويت ٩٠٠  
فلس. العراق ٢٠٠٠ فلس. السعودية ٧ ريالات. السودان ١٥٠٠ مليم.  
تونس ١٥٠٠ مليم. المغرب ١٥٠٠ مليم. الخليج ٨٠٠ فلس. داكار ٨٠٠  
فرنك. ايطاليا ٢٠٠٠ ليرة. البرازيل ٥٠٠ سنت. غزة والضفة ٥٠ سنت.

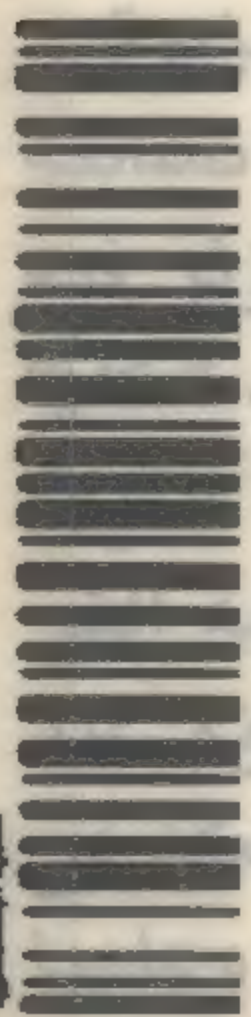




## هذا الكتاب

هذه محاولة تجمع بين جهد العالم ورؤية الفنان ، وقد قل اجتماع هذين الاثنين معا في واحد هذه الأيام .. المحاولة تتجه الى رؤية واقع التغير الذى حدث في مصر لحظات الفتح الاسلامية - الى الكيان العربى المصرى ، وإلى خلق النموذج المصرى الجديد بامتزاج الوافدين بالعروبة والاسلام ، بأهل البلاد وأصحاب النيل وورثة اعرق الحضارات وأكثرها استمرارا على مر التاريخ .. والمحاولة تقدم لنا لقطات لا يستشفها الا فنان قصاص ولا يدقق فى حقائقها التاريخية الا عالم متخصص وقد كانت رسالة الدكتوراه للدكتور عبد الله خورشيد عن القبائل العربية فى مصر دراسة علمية لهذه القبائل لا بعد الفتح وحسب ولكن منذ بداية التاريخ واحتكاك وادى النيل بشبه وجاء حس الفنان ليقدم هذه التراكمات العلمية من زوايا يصبح فيها الانسان هو البطل والبطل للحدث وهو والمتأثر به والخالق لغده الذى توحدت فيه الهوية والامتدافق عبر التاريخ .. والحس القصصى واللغة والاسلوب المتميز يعيدنا الى تذكر الفصول الادبية اثرت حياتنا الادبية فى بدايتها الاولى والتي اختفت الادباء الجدد لما تحتاجه من ذخيرة علمية وروية بانية التعبير .. من هنا كان الكتاب فى هذه الايام درسا وتاريخيا نحتاجه ليزكر ويعلم ويمتعنا ..

Bibliotheca Alexandrina



0392718

